الدكتور فوزي جعفر

الصراع بين الأمويين ومبادئ الإسلام

مطبوعات النجاح بالقاهرة

الدكتور نورى جعفر

الصراع بين الأمويين ومبادئ الإسلام

تقديم

الدكتور حامد حفنى داود

استاذ الأدب العربى بكلية الألسن ـ القاهرة

ملتزم للطبع والنشر

مرتضى السيد محمد الرضوى

عضو رابطة الأدب الحديث بالقاهرة

مطبوعات النجاح بالقاهرة

Books.Rafed.net

الطبعة الثانية
١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م
بالقاهرة

مطبعة دار المعلم للطباعة بالقاهرة

Books.Rafed.net

تصدير

الدكتور حامد حفني داود

استاذ الأدب العربي بكلية الألسن ـ القاهرة

Books.Rafed.net

بسم الله الرحمن الرحيم

فى هذا الكتاب يقدم لنا المؤلف الدكتور نورى جعفر عن عقيدة أخلصها وصفاها لمبادىء الإسلام العديد من مساوىء بنى أمية التى كانت ثلمة لا ترأب فى صرح الإسلام المجيد . وهى لاتزال إلى اليوم .

وصمة فى تاريخهم منذ أمسكوا بزمام الحكم حتى سقطت دولتهم على يدالعباسيين سنة ١٣٢ هـ .

وقيمة هذا الكتاب تتجلى فى أن مؤلفه أضاف شيئاً جديداً على الكاتبين ، هذا الموضوع ، ذلك أنه وثق كل ما جاء من مواقف بنى أمية ضد مبادىء الإسلام السمحاء بالعديد من الروايات المبثوثة فى المصادر والمراجع .

كما أتحف هوامش الكتاب بالكثير من تراجم الاعلام الذين ورد ذكرهم فى ثنايا كتابه .

لقد كتب أبو عثمان بن عمرو بن بحر الجاحظ — شيخ كتاب القرن الثالث الهجرى ... كما كتب غيره الكثير عن أخبار بنى أمية وعن مساوئهم ومناوأتهم للبيت الهاشمى ولكن الذى كتبه الجاحظ وغيره لا يعدو أن يكون من الرسائل المقتضبة ، تناول فيها الجاحظ والمقريزى وغيرهما إبراز الصورة الفنية فيما كتبوا قبل أن يقدموا للقراء روايات مدعمة بالأدلة والبراهين يشفعوا ما كتبوه بمقارنات تاريخية مدعمة بالمراجع والمصادر التى أستمدوا منها دراساتهم .

فالصورة الفنية عند هؤلاء كانت هدفاً فى ذاته . ومن ثم كانت كتبهم لوناً من

Books.Rafed.net

ألوان الأدب قبل أن تكون مصدراً من مصادر التاريخ يصح الاعتماد عليه فى كل شىء .

تناول المؤلف فى هذا الكتاب العديد من القضايا التى خرج فيها بنو أمية عن المثالية الإسلامية التى وضع الرسول أساسها وسار عليها الخلفاء الراشدون كل بقدر إجتهاده حتى بلغت فى خلافة على القمة التى لا يعلوها قمة من أخلاقيات الإسلام ومبادئه وقيمه . لولا أن هذا النهج المثالى الذى شرعه على وبرأ فيه نفسه عن ادعاء الكمال حينما أسندت إليه الخلافة سرعان ما هوجم من معسكر البغى والعدوان من بنى أمية وأعوانهم .

لقد تناول فى كتابه الكثير من هذا الموقف المضاد الذى أحدثه الأمويين ضد الحكومة الراشده ، وزادوا عدواناً وعصياناً على عدوانهم وعصيانهم فى خلافة أمير المؤمنين على بن أبى طالب .

وسبب واضح عند نقاد التاريخ .

وهو أن بنى حرب كانوا دائماً فى موقف مضاد لبنى هاشم الذين كانت لهم الريادة والرفادة والسدانة للكعبة والبيت الحرام .

وكانت لهاشم جد هذا البيت رحلتا : الشتاء والصيف وهما الرحلتان المذكورتان فى سورة « قريش » وخص الله بهما بنى هاشم قبل غيرهما

فلما كان الإسلام تحول التنافس إلى عداء شديد لا يطاق .

وسبب هذا العداء — كما هو معلوم أن الله أرسل نبيه من هاشم ولم يرسل من بنى حرب جد الأمويين .

ولئن كانت قريش تضم الأسرتين المتنافستين فى الجاهلية والمتنازعتين فى الإسلام إلا أن العنجهية القرشية فى آل هاشم تختلف كل الاختلاف عن العنجهية القرشية فى آل حرب .

Books.Rafed.net

فأخلاق الهاشميين أخلاق تعتمد على الإباء والنجدة والمروءة والسؤدد وإزدادت فى الإسلام حين بعث إليه حبيبه محمداً كمالا على كمالها وأرتقت أخلاقهم من مراتب النجدة والشجاعة إلى مراتب الإيثار ، ونكران الذات والعمل بما جاء من آداب المؤمنين فى القرآن .

فكان النبي ومن حوله من الهاشميين وفى مقدمتهم : الإمام على مركز إشعاع لهذه الأخلاق الإسلامية .

أما آل حرب فكانوا أقرب إلى النقيض من هذه الأخلاق على الرغم من كونهم أبناء عمهم ويجمعهم فى النسب من قريش عبد مناف بن قصى والد هاشم جد هؤلاء السادة وأمية جد معاوية بن أبى سفيان .

وقد ألمعنا فى السطور السابقة أن التنافس بين الأسرتين تحـــول إلى عداء مستحكم ؛ ولكن هذا العداء لم يكن آتياً من الهاشميين وكيف يصدر عنهم ؟ وهم : المتخلقون بأخلاق القرآن وفيهم سيد الأنبياء وعلى بن أبى طالب ابن عم النبى ، والعباس بن عبد المطلب عم النبى .

وإنما كان مبعث هذا التنافر والتحدى منبعثاً آل حرب « بنى أمية » وسبب ذلك أنهم رأوا أن السؤدد والدين كله فى ظاهره وباطنه فى الهاشميين وأن هؤلاء حملوهم على الإسلام حملا وقد نالوا منهم فى موقعة بدر فقتلوا الكفار من آل أمية كما قتلوا أبناءهم وأعمامهم .

فتحول أنتصار آل هاشم على آل أمية تحت راية الإسلام فى موقعة بدر إلى كره عنيف وحقد دفين فى قلوبهم .

وتركز هذا البغض والعداء فى رواسبهم النفسية ، فكان ما كان من معاداة للإمام على فى الصورة المؤلمة التى بسطتها كتب التاريخ .

Books.Rafed.net

ومن هذا المنطلق العقائدى أو العقدى ولدت الفتن والملاحم بين الأسرتين القريشيتين .

ولقد حاول المؤلف أن يفصح عن موقف الأمويين ضد مبادىء الإسلام ، فأفاد فى الكثير مما كتب .

وحق له أن يتحدث عن مساوئهم وعما عرفوا به من خيانة ، وغدر بالقيم ، واقتراف للكثير من الجرائم الأخلاقية كالزنا ومعاقرة الخمر وإرتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن فضلا عن الاحتيال فى الدين ونقض للعهود وكذب على الله وآل بيت نبيه ، واستحلالهم للعن الإمام على الذى فيه يقول الرسول :

من سب عليا فقد سبنى ومن سبنى فقد سب الله تعالى .

استعرض المؤلف كل هذه الثغرات الأخلاقية التى تدين بنى أمية وتضعهم فى موضع غير كريم من تاريخ الإسلام . إلا أنى كنت أحب أن يفلسف الخلاف بين الهاشميين والأمويين . وأساس هذا الخلاف الذى تفاقم خطية فى العهد الأموى أن الإمام على ومن حوله ومن بعده من الهاشميين كانوا يمثلون المعسكر المثالى فى الإسلام الذى يؤمن بالمثل والمبادىء والقيم وهو المبدأ الذى يؤثر فيه المثاليون القيم الإسلامية على حظوظ الدنيا . بينما كان الأمويون يمثلون المعسكر الواقعى المتطرف الذى لا يرى الأشياء إلا بالمنظار المادى وأتباع هذا المعسكر يضحون بكل شىء من أجل الدنيا ، ولا بأس عندهم من أن يبيعوا دينهم من أجل عرض زائل من الدنيا .

ولا مانع فى نظرهم أيضاً من اصطناع الكذب والخيانة والرشوة وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ليصلوا إلى دنياهم بالطريق غير المشروع .

والتاريخ شاهد على هذه الآثام التى أرتكبت على حساب الدين .

وهل هناك أفظع من التحايل على الإسلام حين رفع معاوية وعمرو وصحبهم

Books.Rafed.net

المصاحف على الرماح بغياً للفتنة التى قال فى شأنها الإمام على :

« حق أريد به باطل » !

وهل هناك أقيم عند الله من نيل الدنيا على القيم والعقيدة واصطناع الحيل كما فعل معاوية وعمرو ؟ ثم ما أجرم فيه أصحاب معاوية من دس السم للإمام الحسن ، ودس السم لمالك الأشتر وقول معاوية: إن لله جنوداً من العسل مما لا تقره المروءة والنخوة الإسلامية . ثم ما كان بعد ذلك من أهوال لا تطيقها الجبال من قتل ابن بنت رسول الله ظلماً وعدواناً ، وضرب يزيد للكعبة بالمنجنيق ، واستحلال المدينة ، إلى غير ذلك من الفظائع الأموية . إلى غير دلك مما أشار إليه المؤلف فى كتابه .

أما الأحاديث التى أشار المؤلف إليها وما ظنه أنه من الأحاديث التى صنعها بنو أمية للدفاع عن أغراضهم المدانة ، فإن الأمر فى ذلك ينشطر إلى ثلاثة أقسام :

الأول : أحاديث تتعلق بالسياسة والثناء على بنى أمية ، والمبالغة فى مناقب معاوية ، فإن مثـــل هذه الأحاديث تستحق النظر وينبغى ألا يصدق شىء منها إلا فى حالتين الأولى صحة السند والثانية متابعته على غيره من الأحاديث . وإلا كان موضع شك لا يحتمل .

الثانى : أحاديث جاءت فى العزوف عند الدنيا وطاعة الرؤساء ولو كانوا من الظلمة . فإن مثل هذه الأحاديث أصح من الأولى بلا جدال . لسبب واحد وهو أن هناك أحاديث كثيرة جاءت بهذا المعنى ولعل المراد منها :

إيثار وحدة المسلمين على انقسامهم فى حالة خروج بعض الأمة على رؤساء .

وينبغى أن نكون على حذر فى تكذيب مثل هذه الأحاديث ، لأن الانكار بالقلب على من خرج على أحكام الشرع من خاصة الأمة وعامتهم من الأمور المؤثرة فى الدين ويؤيده حديث : « من رأى منكم منكراً . »

الثالث : الأحاديث المروية عن أبى هريرة هى فى الحقيقة أصح من القسمين

Books.Rafed.net

السالفين ، باعتبار أن أبا هريرة لم يكن طرفا فى النزاع بين المعسكر المثالى الذى يؤثر القيم والمعسكر الواقعى الذى يؤثر الدنيا والتحايل على كسبها ، لأجل ذلك أرى أن الحذر كل الحذر فى تكذيب ما روى عن أبى هريرة أمر واجب .

وهناك بعض أحاديث رواها قد يتصور بعض الناس أنها تنافى الذوق العام كحديث الذبابة ، ومع ذلك فأنا أحكم بصدق روايتها عن النبى لأنه لا نستطيع أن نقيس الأحاديث على ذوقنا الخاص ، فربما كانت هناك علل علمية وأسباب كونية قد تخفى علينا اليوم ويثبت العلم صحتها فى المستقبل وقد حدث مثل ذلك كثيراً ، وبذلك يصح الحديث ويبطل قول المتقولين .

هذة لفتة صغيرة لا أفرضها على المؤلف الفاضل ولكنى أذكرها إتماماً للفائدة وإحقاقاً للموضوعية التى يتعصب لها كل باحث .

وبعد فإنى أحمد للباحث هذا الجهد الكبير الذى أتحفنا به وأضاف فيه جديداً على ما أورده أبو عثمان الجاحظ فى رسالته ، وما أشار إليه تقى الدين أحمد المقريزى فى كتابه: « النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم » .

دكتور **حامد حفنى داود**

القاهرة فى ١٣/٩/١٩٧٨

Books.Rafed.net

Books.Rafed.net

الدكتور نورى جعفر

الصّراع بين الأمويين ومبادئ الإسلام

تقديم

الدكتور حامد حفنى داود

استاذ الأدب العربى بكلية الألسن ـ القاهرة

ملتزم للطبع والنشر

مرتضى السيد محمد الرضوى

عضو رابطة الأدب الحديث بالقاهرة

مطبوعات النجاح بالقاهرة

Books.Rafed.net

بسم الله الرحمن الرحيم

Books.Rafed.net

سيقول بعض القراء : ما لنا والأمويين ؟ لقد مضى عليهم زهاء ثلاثة عشر قرنا . أليست هناك مواضيع أخرى ـ ألصق منهم بحياتنا الحاضرة ـ تستلزم البحث والاستقصاء ؟ ألا يثير البحث ـ فى هذا النوع من المواضيع ـ اختلافا بين المسلمين نحن فى غنى عنه فى الوقت الحاضر ؟ أليس البحث ـ فى هذا الموضوع بالذات ـ ينم عن « رجعية » فى التفكير ؟

ان هذا النمط من التساؤل ينطوى ـ على ما أرى ـ إما على سذاجة فى الإدراك ، أو على نفاق وتهافت ، أو أنه يتضمن المغالطة والتضليل ـ كل ذلك بالطبع يتوقف على الجهة التى يصدر منها .

ذلك لأن الأمويين يلازم تاريخهم الناشئة العراقية ـ بنين وبنات ـ طوال المراحل الدراسية الثلاث : الابتدائية والثانوية والعالية .

وفى أكثر من جانب من جوانب منهج التدريس : فى دروس التاريخ والدين والأدب والمطالعة والنصوص . يضاف إلى ذلك أن الأمويين يطلون علينا ـ بين حين وآخر ـ من نوافذ المنظمات القومية للنشئة فى أنحاء القطر وبعض أرجاء العالم العربى .

هذا إلى أن المرء كثيرا ما يصادفهم فى منظوم القول وفى منثوره . فقد تغنى بمجدهم فريق من الكتاب المعاصرين وحن إلى عهدهم رعيل من الشعراء المحدثين .

فالدكتور بديع شريف ، مثلا ، يشيد بمجدهم فى كتابه الممتع « الصراع بين المولى والعرب » والدكتور عبد الرزاق محى الدين يريدها ـ فى قصيدته الرقيقة ـ

. . . أما معاوية يعلو الاريكة أو أبو الحسن

فلماذا لا يعترض المعترضون على ذلك ؟ ويعتبرونه رجعية فى التفكير ؟ لأنه يدعو إلى ارجاع عهد مرت عليه مئات السنين .

Books.Rafed.net

لماذا لا يطلبون من وزارة المعارف أن ترفع كابوس الأمويين عن كاهل الطلاب والطالبات ؟ هل « الرجعية » المزعومة ناتجة عن كون بحثنا هذا يختلف عما ألفه المعترضون من « حقائق » مدرسية عن التاريخ الأموى ؟ .

أما الدعوة إلى البحث فى أمور ألصق بحياتنا اليومية من الامويين فكلمة حق يراد بها باطل . ذلك لان البحث فى الامويين لا يحول دون التصدى للبحوث الاخرى بالتمحيص والنقد .

وأما الاختلاف بين المسلمين فموجود فى أغلب نواحى الحياة ــ بما فى ذلك موقفهم من الأمويين .

وما هذه الدراسة ــ فى الواقع إلا صدى لذلك الاختلاف . فهى نتيجة من نتائجه لا سبب من أسباب حدوثه . ولعلها ــ إذا ما قرئت بعين الانصاف والتدبر ــ تخفف من حدة ذلك التوتر بين المسلمين فى موقفهم من الأمويين على الاقـــل .

على أن الامر ، مع هـذا ، أعمق من ذلك كله بكثير فالأمويون ملتصقون بحياتنا العامة أشد الالتصاق : تؤثر سيرتهم فينا بصورة مباشرة أحيانا وغير مباشرة أحيانا أخرى .

فالقومية العربية ، بشكلها النازى الممقوت من حيث موقفها من العرب غير المسلمين ومن غير العرب ، هى احدى مخلفات الأمويين . وتظاهر الكثيرين منا باحترام الدين واتباع أوامره ونواهيه ــ فى القول ــ ومخالفتهم ذلك «فى العمل» هو الآخر من آثارهم .

واهتمام كثير من المشتغلين بالأمور الدينية بالجوانب الثانوية الاهمية من الدين على حساب جوهره هو أيضا من مخلفاتهم .

Books.Rafed.net

والخلاصة : إننا مرضى فى أخلاقنا ، يأمر أغلبنا بالفضيلة ولا يفعلها ، وينهى عن الرذيلة ويتعاطاها .

وما هذا الانحراف الخلقى ، على ما أرى ، إلا أحد مخلفات الامويين : تعست أمة تستوحى مثلها العليا ، والسياسية والاخلاق ، من معاوية بن أبى سفيان، وعمرو ابن العاص وزياد بن سمية ، والحجاج بن يوسف ومن هم على شاكلتهم من الحكام والامراء . .

بغداد فى ١٩٥٦/٦/٢٣ م

نورى جعفر

Books.Rafed.net

مقدمة

عاش العرب فى شبه جزيرتهم أيام الجاهلية . وعاشوا داخل شبه الجزيرة وخارجها عندما انبثق نور الإسلام فى بلادهم .

وقد حاولوا ـ فى الحالة الأولى وعلى القدر المستطاع ـ أن يتجنبوا الاحتكاك بغيرهم من الأمم إلا ما استلزمته طبيعة الظروف التى نشأوا خاضعين لها من الناحيتين المادية والفكرية .

وسعوا ـ فى الحالة الثانية ـ إلى الاحتكاك بالأقوام التى عاشت خارج نطاق محيطهم الجغرافى . وسبب ذلك ـ على ما يبدو ـ هو : أن الدين الجديد قد شجع العرب على التوغل فى البلاد الأخرى عن طريق الفتح .

غير أن احتكاك العرب المسلمين بالأمم الأخرى ، عن طريق الفتح ، قد أصبح فى العهد الأموى الذى بدأ بخلافة عثمان بن عفان لا بحكم معاوية كما هو الشائع .

وسيلة من وسائل إشغال العرب المسلمين بالتوغل فى بلاد غريبة عنهم فى مواردها وفى طبائع أهلها ، وعاملا من عوامل توجيه أنظارهم نحو الانتفاع بتلك الموارد من الناحية المادية .

وواسطة من وسائط اليها الذين يطالبون « الخليفة » بوجوب السير وفق تعاليم الدين كما جاءت فى القرآن وسيرة النبى . أى إن : « الفتح » الإسلامى قد أصبح وسيلة من الوسائل التى يتخلص بها « الخليفة » من العناصر المتمردة على الأوضاع السياسية والاقتصادية القائمة غير المنسجمة مع مبادىء الدين الحنيف .

وواسطة من وسائط ابتزاز موارد البلاد المفتوحة ليتصرف بها « الخليفة » وفق هواه على حساب الدين .

Books.Rafed.net

فعثمان بن عفان ـ الذى بدأ فى عهده وضع أسس الحكم الأموى ـ مثلا : قد أسرف فى تبذير أموال المسلمين على أصهاره ، وأنصاره وذوى قرباه .

فمنح مروان ابن الحكم ـ زوج ابنته أم إبان ـ كما منح ابنته عائشة زوج الحرث ابن الحكم، أخى مروان مثلا : « مئتى ألف درهم من بيت المال سوى ما أقطعه من قطائع ...

ومنح أبا سفيان ـ شيخ بنى أمية ـ مئة ألف درهم » [1] .

« كما أنه وهب مروان بن الحكم ، خمس الغنيمة التى غنمها المسلمون فى أفريقية .

وأعطى الحكم ـ أبا مروان ـ وابنه الحرث ثلثمائة ألف .

وأعطى عبد الله بن خالد بن أسيد الأموى ثلثمائة ألف .

وأعطى لكل واحد ـ من الذين وفدوا مع عبد الله بن خالد ـ مئة مئة ألف .

وأعطى الزبير بن العوام ستمائة ألف ، وطلحة مئة ألف ، وسعيد بن العاص مئة ألف .

وزوج ثلاثاً أو أربعاً من بناته لنفر من قريش فأعطى كل واحد منهم مئة ألف دينار . » [2] قال البلاذرى [3] :

حدثنى محمد بن سعد عن الواقدى عن أسامة بن زيد بن أسلم عن نافع مولى الزبير عن عبدالله بن الزبير قال: أغزانا عثمان أفريقية فأصاب عبدالله بن أبى سرخ غنائم جليلة فأعطى عثمان مروان بن الحكم خمس الغنائم...

---

١ ـ عبد الفتاح عبد المقصود ، الإمام على بن أبى طالب ج ٢/ ص ٢٠ـ٢١ .

٢ – الدكتور طه حسين ، الفتنة الكبرى ، عثمان بن عفان ص ١٩٣ .

٣ ـ أنساب الأشراف ٥/٢٧و٢٨و٥٢ . ومحمد بن سعد ـ صاحب الواقدى وكاتبه ـ هو صاحب الطبقات الكبرى توفى عام ٢٣٠ هـ . أما الواقدى فهو صاحب المغازى . تولى القضاء فى عهد المأمون . وهو منسوب إلى واقد جده . توفى سنة ٢٠٧ هـ .

Books.Rafed.net

وحدثنى محمد بن سعد عن الواقدى عن عبد الله بن جعفر عن أم بكر عن أبيها قالت قدمت إبل الصدقة على عثمان فوهبها للحرث بن الحكم بن أبى العاص .

وإن عثمان ولى الحكم بن أبى العاص صدقات قضاعة فبلغت ثلثمائة ألف درهم فوهبها له حين أتاه بها .

وأعطى عثمان زيد بن ثابت الأنصارى مئة ألف درهم .

هذه نماذج من تبذير الأمويين أموال المسلمين سقناها على سبيل التمثيل لا الحصر هذا مع العلم أنها حصلت فى عهد ثالث الخلفاء الراشدين .

أما نظائرها فى عهد معاوية والذين جاؤوا من بعده فقد بلغت حداً يفوق الوصف .

لقد مر بنا القول بأن الفتح الإسلامى قد أصبح ـ فى عهد الأمويين ـ وسيلة من وسائل إشغال الناس بالغزو لصدهم عن التحدث فى أوضاعهم الداخلية العامه .

وقد اتضح ذلك عندما أخذ الأمر يتفاقم على عثمان بن عفان .

فقد جمع ابن عثمان ـ سنه ٣٤ هـ ـ كبار أمرائه للتداول معهم فى إيجاد حل للخروج من تلك الأزمة السياسية الحادة وتلك الفتنة الغليظة المظلمة .

فاقترح عبد الله بن عامر ـ على عثمان ـ أن يرسل المسلمين الى « الجهاد » ويلهيهم بالحرب ويطيل إقامتهم بالثغور .

ويلوح لى أن بعض المسلمين قد انتبه إلى هذه الحيلة فحاول أن يفسدها .

فمحمد بن أبى حذيفة[1] ـ الذى آلمته سياسة عثمان ، مثلا قد بدأ يندد به ويحرض على قتله ، وغم صلة القربى التى تجمع بين الرجلين .

« فكان ياتى الرجل عائدا من غزوة الروم فيتخابث ويسأل :

أمن الجهاد ؛ فيجيبه الرجل بنعم . فيشير بإبهامه إلى ناحية الحجاز ويقول :

---

١ ـ ابن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس . وعتبة جده هو أبو هند زوج أبى سفيان وأم معاوية . أسره عمرو بن العاص عند ما غزا مصر بعد الزوان وقتل محمد بن أبى بكر عامل على عليها . فأخذه معاوية وسجنه ، غير أنه هرب من السجن . فلحق به عبيد الله بن عمرو ابن ظلام ـ وهو رجل من خثعم ـ فقتله .

Books.Rafed.net

لقد تركنا خلفنا الجهاد ـــ جهاد عثمان بن عفان »[1]

هذا ما يقوله محمد بن أبى حذيفة فيما يتعلق بتصرفات ثالث الخلفاء الراشدين .

ولا ندرى ماكان يقوله محمد لو قدر له أن يعيش فيشهد سيرة الأمويين بعد مصرع ابن أبى طالب !! حيث أصبحت القاعدة العامة للحكم الأموى هى : الخروج على القرآن وسيرة النبى ، وصار الحكام الأمويون يتسابقون على الانغماس فى الموبقات :

الأمر الذى اضطر فريقاً من خيرة المسلمين [2] إلى توجيه روح الجهاد (الذى غرسه الإسلام فى نفوسهم) نحو محاربة الأمويين . فوقعوا صرعى فى ساحات الشرف .

ولقد جاهد أولئك المسلمون الأمويين لإرجاعهم إلى أحضان الدين ولردعهم عن الإيغال فى الموبقات ولصدهم عن السير فى وثنيتهم السياسية والأخلاقية ـــ جرياً مع مستلزمات القرآن .

فقد جاء فى سورة البقرة : « وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم » وفى سورة المائدة » : إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا .. . »

وفى سورة المجادلة : « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم . . . »

لقد كانت الغاية من الجهاد ـــ فى عهد الرسول الكريم ـــ هى رفع كلمة الله والسمو بالمتخلفين من الناس إلى أوج المستويات الخلقية الرفيعة .

وكان الرسول الكريم يوزع غنائم الفتح توزيعاً عادلا بين المسلمين وفق

---

١ ـــ عبد الفتاح عبد المقصود ، الإمام على بن أبى طالب ٢/٤٨ والبلاذرى ، أنساب الأشراف ٥/٥٠/٥١

٢ ـــ ول مقدمتهم الحسين بن على وصحبه وعمار بن ياسر وحجر بن عدى وصحبه وعمرو ابن الحمق الخزاعى وميثم التمار ومن هم على شاكلتهم .

Books.Rafed.net

مستلزمات الشريعة السمحاء . فلا غزو أن رأينا المسلمين — فى عهده — يتسابقون فى تقديم أرواحهم للموت .

وفى تاريخ الرسول أمثلة رائعة من هذا القبيل ذكر الواقدى :

إن الرسول — عندما علم أن أبا سفيان قد ألب عليه المشركين لأخذ ثأرهم منه بعد معركة بدر — استشار أصحابه قبل الخروج إلى أحد فيما ينبغى أن يفعلوه . فطلبوا منه أن يخرج إلى عدوهم ورغبوا فى الاستشهاد فى سبيل الله .

« فقال مالك بن سنان — أبو أبى سعيد الخدرى — يارسول الله نحن والله بين إحدى الحسنين :

إما أن يظفرنا الله بهم . فهذا الذى نريده . والأخرى — يارسول الله — يرزقنا الله الشهادة . والله — ما أبالى أيهما كان . إن كلا لفيه الخير . . .

وقال النعمان بن مالك بن ثعلبة — أخو بنى سالم — يارسول الله لا تحرمنا الجنة . فو الذى لا آله إلا هو لأدخلنها[1] . . .

وقال خثيمة — أبو سعد — يارسول الله إن قريشاً مكثت حولا تجمع الجموع وتستجلب العرب فى بواديها ومن تبعها من أحابيسها[1] . ثم جاؤنا . فلنخرج لهم عسى الله أن يظفرنا بهم . أو تكون الأخرى وهى الشهادة .

---

١ — مغازى رسول الله (ص) ١٦٤ — ١٦٥ .

٢ — ولقد حدث شىء مشابه لهذا بين المخلصين من اتباع الامام أثناء استعداده للخروج إلى صفين . فقد ازدحمت الخيل حين عبرت الفرات متوجهة من العراق إلى الشام « فسقطت قلنسوة عبد الله بن أبى الحصين. فنزل فأخذها وركب. ثم سقطت قلنسوة عبد الله بن الحجاج فنزل فأخذها ثم ركب . فقال لصاحبه أن يكون ذلك تطيرا صادقا أقتل وشيكا وتقتل . فقال عبد الله بن أبى الحصين ما شىء أحب إلى مما ذكرت . فقتلا معا يوم صفين . » ابن أبى الحديد ، شرح نهج البلاغة ١/٢٩٠ الطبعة الأولى بمصر .

٣ — الأحابيس هم بنو الحرث بن عبد مناف بن كنانة ، وبنو المصطلق من خزاعة ، وبنو الهون من خزيمة — راجع ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ٢/١١٨ .

Books.Rafed.net

لقد أخطأتنى وقعة بدر وقد كنت عليها حريصا . وقد بلغ — من حرصى — أن ساهمت ابنى فى الخروج فخرج سهمه . فرزق الشهادة وقد كنت عليها حريصا وقد رأيت ابنى البارحة — فى النوم — فى أحسن صورة يسرح فى ثمار الجنة وأنهارها وهو يقول : إلحق بنا ترافقنا فى الجنة . وقد — والله يارسول الله — أصبحت مشتاقا إلى مرافقته فى الجنة . . .

وقال أنس بن قتادة : يارسول الله هى إحدى الحسنيين . إما الشهادة وإما الغنيمة والظفر بهم . »

تلك صورة من أروع صور دفاع المرء عن عقائده واستعداده للتفانى فى سبيلها. فالاستشهاد فى ساحات القتال والظفر بالخصم سيان عند مالك بن سنان . فهو لا يبالى أيهما كان لأن فى كل منهما الخير .

والاستشهاد فى سبيل صيانة بيضة الإسلام — بنظر النعمان بن مالك — أفضل من الانتصار على المشركين على الرغم مما فى ذلك الانتصار من إعلاء لكلمة الله .

فالنعمان مصمم على دخول الجنة — أى أنه قد وطد نفسه على نفسه الموت فى ساحات القتال . وليس بعد هذا من شىء يستطيع أن يقدمه المرء فى سبيل الدفاع عن معتقداته فى الدين والسياسة والأخلاق .

أما خيثمة فقد تسابق مع أبنه فى الوصول إلى الموت ، وأنه أسف على نجاته منه فى معركة بدر بقدر ما كان فرحه شديداً باستشهاد ولده .

وقد رأى فى المنام ولده الشهيد على أحسن حال فشجعه على اللحاق به .

وإذا كانت الأحلام كما يقول فرويد — العالم النفسى المعروف تعبيراً عن الرغبات المكبوتة لدى الإنسان ، أى أنها تحقيق لما لا يمكن تحقيقه فى الحياة التى يحياها الإنسان ، فإن خيثمة — حلمه هذا — قد ضرب مثالا آخر من أروع الأمثلة فى الدفاع عن الإسلام .

وهناك صور أخرى ، لا تقل روعة عما ذكرنا ، فى التعبير عن موقف المسلمين

Books.Rafed.net

من الجهاد فى عهد الرسول ، فمنها ما يتصل بموقف الأحداث وآبائهم من التضحية فى سبيل الاسلام . قال الواقدى[1] :

عرض على الرسول غلمان عبد الله بن عمرو ، وزيد بن ثابت وأسامه بن زيد والنعمان بن بشير ، وزيد بن أرقم والبراء بن عازب ، وأسيد بن حضير ، وغرابة ابن أوس وسمرة بن جندب ، ورافع بن خديج ، فردهم .

قال رافع بن خديج : فعملت أتطاول ـــ وعلى خفان ـــ فأجازنى رسول الله . فلما أجازنى شكا سمرة بن جندب لربيبه ـــ مرى بن سنان زوج أمه ـــ ذلك . فقال : مرى يا رسول الله رددت إبنى وأجزت رافع بن خديج ! ! وابنى يصرعه . فتصارعا . فصرع سمرة رافعا .. فأجازه الرسول » .

ومنها ما يتعلق بحماس من أجاز لهم الإسلام أن يتخلفوا عن الجهاد .

وقد بلغ عمرو بن الجموح القمة فى موقفه فى هذا المضمار .

وكان عمرو بن الجموح رجلا أعرج . فلما كان يوم أحد ـــ وكان له بنون أربعة يشهدون مع النبى أمثال الأسد ـــ أراد بنوه أن يحبسوه .

فقال له المسلمون أنت رجل أعرج ولا حرج عليك ، وقد ذهب بنوك مع النبى. قال : بخ ! ! يذهبون إلى الجنة وأجلس أنا عندكم ، فخرج ولحقه بنوه يكلمونه فى القعود . فأتى رسول الله ، فقال :

يا رسول الله إن أولادى يريدون أن يحبسونى عن هـذا الوجه والخروج معك ، والله إنى لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه الجنة . فقال رسول الله أما أنت فقد عذرك الله ، ولا جهاد عليك . فأبى عمرو إلا الخروج معهم إلى أحد .

فقال أبو طلحة : نظرت إلى عمرو بن الجموح فى الرعيل الأول يقول : أنا والله مشتاق إلى الجنة ، وإبنه فى أثره . حتى قتلا .

وكانت عائشة ـــ زوج النبى ـــ قد لقيت بنت عمرو بن حزام ـــ راجعة

---

١ ـ مغازى رسول الله (ص) ص ١٦٩

Books.Rafed.net

بعد أحد ــ تسوق بعيراً لها ، عليه جثة زوجها عمرو وجثة أخيها عبد الله ، وجثة إبنها خلاد .

فقالت لها عائشة : فأين تذهبين بهم ؟ قالت : إلى المدينة أقبرهم فيها ..

ثم أقبلت هند إلى رسول الله فقالت له : أدع الله عسى أن يجعلني معهم .

فعمرو بن الجموح خرج إلى الجهاد رغم إعفائه عن المساهمة فى ذلك من الناحية الشرعية . وأراد أن يطأ بعرجته الجنة . فأخذ يتسابق ــ على ذلك ــ مع أحد بنيه حتى صرعا معاً .

وقد أصبح بذلك من التضحية فى ذؤابتها .

أما زوجه هند فهى الأخرى قد سارت فى طريق الخلود . فلم تكتفى باستشهاد زوجها وابنها وأخيها ــ وهو أمر لا تقوى على تحمله النساء ــ « حملهم على جملها من أحد إلى المدينة لدفنهم ، وهى جذلة متعالية » بل أرادت من الرسول أن يدعو لها باللحاق بهم .

كل ذلك طمسه الأمويون بالإضافة إلى طمسهم معالم الدين الأخرى كما سنرى .

ذلك ما يتصل بموقف العرب المسلمين من الأمم الأخرى فى ضوء الدين الجديد .

أما ما يتصل بموقفهم من جاهليتهم فيمكننا أن نقول :

إن الدين الجديد قد استلزم ــ من الناحية النظرية على كل حال ــ إحداث تغييرات واسعة المدى وعميقة الغور فى نظرة العربى لنفسه من حيث صلتها بالمجتمع الذى ينتمى إليه وبالكون الذى يعيش فيه ،

كما إنه قد استلزم كذلك ــ من الناحية النظرية أيضاً ــ إجراء تبدلات واسعة وعميقة فى تصرفات العربى فى المجالين الآنفى الذكر .

وبما أن دراستنا هذه منصبة ـ فى جوهرها ـ على الجانب الأخلاقى للدين

Books.Rafed.net

الجديد ـ بمقدار ما يتعلق الأمر بالأسرة الأموية ـ فسوف لا نتطرق للبحث فى الدين الإسلامى ـ فى جوانبه العقائدية ـ إلا عرضاً .

أى إننا سوف تقصر البحث فى الجانب الأخلاقى ـ السياسى للأمويين فى ضوء مبادىء الدين الحنيف . ويمثل الجانب السلبى للأخلاق الإسلامية الجانب الإيجابى لأخلاق العرب فى جاهليتهم . أى أن كل تصرف نهى الدين العرب عن تعاطيه يعتبر خلقاً عربياً جاهلياً أصيلا فيهم . وفى القرآن الكريم آيات تصف الخلق العربى ـ فى جانبيه الإسلامى والجاهلى ـ فتعبر جوانبها الإيجابية عن الخلق العربى الإسلامى . على حين أن جوانبها السلبية تصف الخلق العربى الجاهلى . وقد جعلنا محتويات تلك الآيات مقياساً لدراستنا لأخلاق الأمويين .

جاء فى سورة الانعام : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم : ألا تشركوا شيئاً ... ولا تقربوا الفواحش ـ ما ظهر منها وما بطن ـ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ... » وإذا قلتم فاعـــدلوا ولو كان ذا قربى . وبعهد الله أوفوا ... » (١) .

وجاء فى سورة الحجرات : « يا أيها الذين آمنوا إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن إكرمكم عند الله أتقاكم » . .

فاذا نظرنا إلى الآيات الآنفة الذكر فى ضوء المجالين السالفين ـــ علاقة المسلم بالكون وبالمجتمع ـــ امكننا أن نحدد الخلق الإسلامى تحديداً دقيقاً . فتتلخص علاقة الإنسان بالكون فى الإيمان بواحدانية الله .

أما علاقته بالآخرين فتبدو فى الإقلاع عن الزنى والقتل ونكث العهد والغدر وتجنب الظلم بشتى صوره . تلك هى ـ بنظرنا ـ الاسس التى يرتكز عليها الإسلام فى جوانبه الاخلاقية .

---

١ ـ وقد ورد شىء مشابه لهـذا فى سورة البقرة ، وآل عمران ، والنســاء ، وهود ، ويونس والرعد ، فى أكثر من موضع واحد .

Books.Rafed.net

وقد جاء أغلبها بصيغة السلب ـ النهى ـ لان أضدادها ، على ما يلوح ، كانت هى : الاخلاق الشائعة فى المجتمع العربى الجاهلى . فالاخلاق التى حثت الآيات السالفة الذكر العرب على التمسك بها هى الاخلاق الإسلامية ، وتطبيقها على العرب ما نسميه : « الخلق العربى الإسلامى » .

والاخلاق التى نهى الاسلام العرب عن السير وفق مستلزماتها هى ما ندعوه : « الخلق الجاهلى » أى أخلاق العرب فى جاهليتهم .

ذكر أبو عمرو ـ سفيان بن عبد الله » قال : قلت يا رسول الله قل لى قولا فى الاسلام لا أسأل عنه أحداً غيرك قال : قل آمنت بالله ثم أستقم » (١) . فأوجز الرسول ـ بذلك ـ الاسلام ـ الاسلام فى جانبيه العقائدى والأخلاقى .

فالايمان بالله يستلزم القيام بالشعائر الدينية المعروفة . والاستقامة تتضمن السير وفق مستلزمات الأخلاق الاسلامية التى شرحناها .

ومن الطريف أن نذكر هنا أننا عثرنا على أكثر من ثلاثين آية تشير إلى أن الاسلام يتضمن الايمان بالله واستقامة الأخلاق(٢) . فهل آمن الامويون بالله ؟ ومن ثم استقاموا ؟

---

١ ـ وقد أشار الرسول ـ فى قوله الآنف الذكر ـ إلى ما جاء فى سورة فصلت : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا . . . » ، وفى سورة الأحقاف : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

أما قول الرسول الأنف الذكر فقد ورد فى كتاب : « الفتوحات الوهبية » لإبراهيم المالكى ص ١٩٦ .

٢ ـ راجع سورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأعراف ، ويونس وهود ، والرعد ، وإبراهيم ، والنحل ، والكهف ، ومريم ، والحج ، والعنكبوت ، ولقمان ، والسجدة ، وفاطر ، وفصلت ، والجاثية ، ومحمد . وجميع تلك الآيات تبدأ بـ :

والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ... » ويلوح لى أن الإسلام يهدف ـ من الإيمان بالله ـ تقويم الأخلاق .

Books.Rafed.net

إن تاريخهم -- الذى سنذكره — يشير بصراحة ووضوح إلى الإجابة بالنفى عن هذين السؤال ـ هذا باستثناء سيرة عمر بن عبد العزيز . فقد كان الأمويون ـ كما سنرى — فى صراع رهيب مع مبادىء الإسلام منذ انبثاق نوره — فى عهد الرسول — حتى سقوط دولتهم عام ١٣٢ هـ .

وقد ظهر لى كذلك أن الأمويين قد اتخذوا الدين الاسلامى ستاراً لتثبيت أخلاقهم الجاهلية التى حاربها الاسلام .

فقد تعاونوا ـ أباً عن جد عدا عمر بن عبد العزيز ـ على فصم عرى الاسلام عروة فعروة . ولم يسلم جانب من جوانب الدين من التعرض لاعتداءاتهم المتكررة كلما آنسوا — فى ذلك الاعتداء — تركيزاً لأسس حكمهم الجاهلى البغيض . فلا يمكن أن يجمع المرء — على ما رأى — بين الأمويين والاسلام .

فإما أن يخلد الأمويين على أساس أخلاقهم العربية الجاهلية التى مسخها الاسلام .

وإما أن يخلد الاسلام — بتعاليمه وأخلاقه — ويشجب الأمويون .

لأن محاولة الجمع بين الأمويين والاسلام فاشلة ويائسة بعد التحليل الدقيق .

وهناك أمر آخر لا بد من الإشارة إليه فى هذا الصدد ؛ هو : أن الحكام الأمويين قد أخذوا يتسابقون — كما سنرى — على الايغال فى الخروج على مبادىء الاسلام .

وأخذ الخلف منهم يسبق السلف — بمراحل — فى هذا المضمار .

---

* وفى سيرة النبى من الأمثلة على ذلك الشىء الكثير . « روى عن ابن عباس أنه قال : كنا مع النبى فى سفر . فمنا الصائم ومنا المفطر . فنزلنا منزلا فى يوم حار . . . فسقط الصوام وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب . فقال الرسول : ذهب المفطرون بالأجر كله » جورج جرداق : الإمام على ، ص ٩٤ .

Books.Rafed.net

وبما أن الامويين قد اغتصبوا الحكم الاسلامى : اغتصبوا الحكم الاسلامى اغتصاباً ، ولم يكن لهم — من الناحية الشرعية — ما يؤهلهم لزعامة المسلمين ، اا ب أن رأيناهم يسعون إلى تثبيت أركان حكمهم بوسائل فاسدة من الرشوة والملاينة ، ومن الارهاب والتنكيل حسبما تستلزم الظروف والمناسبات .

فانفسح — بسياستهم تلك — باب الشر على مصراعيه أمام الوصوليين الانتهازيين .

وأغدق الأمويون عليهم العطايا وخلعوا عليهم الجاه والمناصب والنفوذ على حساب الدين .

وقد حول الامويون — كذلك — نشاط المشتغلين فى الأمور الدينية إلى وعظ الرعايا المسلمين وحثهم على التذرع بالصبر ، والطاعة ، والخضوع للاوضاع السياسية القائمة .

فأوجد بعض هؤلاء الحيل الشرعية لتبرير تصرفات الأمويين .

فاحتمى بذلك الأمويون ، وعصموا ملكهم من التعرض للانهيار على أيدى المطالبين بالعودة إلى القرآن وسنة الرسول .

ويطلب أن أنبه القارىء — فى ختام هذه المقدمة — إلى أن دراستى هذه محاولة لتفسير تاريخ الامويين فى ضوء مبادىء الدين الاسلامى .

فقد وضعت الأمويين تحت مجهر الاسلام .

ووازنت بين تصرفاتهم وبين مبادئه التى جاءت فى القرآن وسيرة الرسول فاكثرت من الاستشهاد بمحتويات القرآن وأحاديث النبى — لانها الوثائق التاريخية ، والمستمسكات القانونية الوحيدة فى هذا السبيل .

كما استشهدت بحوادث كثيرة ذكرتها أمهات كتب التاريخ عن الامويين .

ووازنت بين الجانبين .

وقد ظهر لى أثناء عملية الموازنة بين الجانبين بأن الدين الاسلامى شىء

Books.Rafed.net

وتصرفات الامويين شيء آخر يختلف عنه تمام الاختلاف . فانكشف أمامى فشل المحاولة التى يبديها بعض الباحثين لتغليف سيرة الامويين بغشاء سميك من المغالطة والتدليس وإظهارها على غير مظهرها الذى جاءت به أمهات كتب التاريخ .

أما السبب الذى دعانى إلى قياس تصرفات الأمويين بمقياس الدين الاسلامى فهو : أنهم حكموا المسلمين باسم الدين ، وتظاهروا باتباع مبادئه ، وأخذ بعضهم البيعة لبعض آخر على هذا الأساس . ولا أرانى بحاجة إلى أن أنبه القارىء إلى أن المحاولة التى يبديها بعض الكتاب المعاصرين لتطبيق مبادىء الدين الإسلامى على شؤون الحياة السياسية والاقتصادية فى الوقت الحاضر أمر خارج عن نطاق هذه الدراسة .

فقد اقتصر البحث — كما سيرى القارىء — على تدوين سيرة الأمويين فى ضوء المبادىء الدينية التى تظاهروا بأنهم يسيرون وفق مستلزماتها . ولكى يستوفى البحث ، الذى بين يدى القارىء ، شروطه العلمية فقد تضمن — كما سلف أن ذكرنا — الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث [1] وموازنة ذلك بتصرفات الامويين كما جاءت فى أمهات كتب التاريخ الإسلامى .

فهذا البحث إذن بحث فى التاريخ الأموى لا فى السياسة المعاصرة أو فى الدين .

لقد اكتسب الأمويون ، بجدهم ، — عند من يقول بذلك من الباحثين — بواسطة الإسلام . فقد رفعهم الإسلام — بنظر بعض الناس — من حضيض الجاهلية إلى مستوياته الرفيعة . فيصبح مدح أولئك الباحثين للأمويين ، وتدوينهم سيرتهم وتدريسها للناشئة — هذا الأساس — إنما هو مدح ضمنى للإسلام .

وإننى بهذا الروح — روح الإطراء على الإسلام .

---

١ — وهى الجانب النظرى — الدستورى — الذى ادعى الأمويون بأنهم يسيرون وفق مستلزماته فى تصرفاتهم العامة والخاصة باعتبارهم « خلفاء » المسلمين — « خلفاء » النبى فى رعاية رسالته والسير وفق هديه الذى نطق به القرآن والحديث .

Books.Rafed.net

أنتقد سيرة الامويين . فقد ساقنى البحث — كما سنرى — إلى الاعتقاد بأن الامويين إنما اكتسبوا سلطانهم على أساس هدم الإسلام ، لا على أساس رفع كلمته وتثبيت قواعد بنائه . فهم الذين انتزعوا منصب خلافة المسلمين — على رغم أنف الإسلام ومعتنقيه ، وساروا — فى حياتهم العامة والخاصة — على نهج طوح بالمثل العليا التى جاء بها الإسلام . فذوى روح الإسلام ، وانطوت مبادؤه الاخلاقية على نفسها بدلا من أن تسير فى طريق التوسع والانتشار .

بدأت هذه الدراسة فى البحث فى التاريخ الأسرة الاموية فتنبعث خطوطه العامة فى الجاهلية والاسلام . ثم انتقلت إلى التحدث عن ضروب المقاومة التى أبداها الأمويون للحيلولة دون إنتشار الاسلام فى عهد الرسول . ثم بحثت أساليبهم فى إيذاء الرسول فى مكة والمدينة . وبعدها انتقلت إلى الحديث عن الوسائل التى استعانوا بها لتثبيت أركان حكمهم السياسى المناوىء لمبادىء الاسلام . وختمت هذه الدراسة بعرض نماذج من صراعهم الرهيب مع الدين منذ مصرع رابع الخلفاء الراشدين حتى زوال حكمهم على أيدى العباسيين .

بغداد فى ٢٥ / ٥ / ١٩٥٦ نورى جعفر

Books.Rafed.net

بسم الله الرحمن الرحيم

Books.Rafed.net

الفصل الاول

الأمويون : الجاهلية الاولى

الامويون هم نسل أمية بن عبد شمس . وينقسمون إلى : العنابس والاعياص . فالعنابس أشهرهم — فى التاريخ الإسلامى المدون — حرب وأبو حرب ، وسفيان وأبو سفيان (صخر بن حرب) ومعاوية [1] . ويزيد ابنه ومعاوية بن يزيد .

وأما الاعياص فأشهرهم : أبو العاص وولده عفان — أبو عثمان ، والحكم وابنه مروان ، وعبد الملك بن مروان ، وأولاد عبدالملك : الوليد وسليمان ويزيد وهشام وعبد العزيز —أبو عمر — ، وأحفاد عبد الملك : الوليد بن يزيد وابراهيم ابن الوليد بن يزيد ومروان بن محمد بن عبد الملك .

وقد حكم الامويون الاسلامية زهاء قرن منذ مصرع الامام على بن أبى طالب عام — ٤٠ هـ — حتى سقوط دولتهم سنة ١٣٢ .

وقد أنصف الحكم الاموى - باستثناء السنتين (٩٩ — ١٠١) اللتين حكم أثناءهما عمر بن عبد العزيز — بمجافاته لروح الإسلام وبخروجه على مبادىء القرآن وسنة الرسول . كما سنرى .

---

١ — وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس . وعتبة هذا — الذى قتل فى بدر — هو صاحب النفير ، وأبو سفيان صاحب العير . وقد ذهب — موضوع العير والنفير — مثلا فى التاريخ فيقال للخامل : لا فى العير ولا فى النفير . وهند — أم معاوية — هى أم أخيه عتبة . وقد اتهمت بفجور وعهر — كما سنرى — .

أما يزيد ومحمد وعنبسة وحنظلة — الذى قتل فى بدر — وعمرو — الذى أسر فى بدر — فهم أبناء أبى سفيان من أمهات شتى .

Books.Rafed.net

ومما تجدر الاشارة إليه فى هذا الصدد هو أن بعض أحفاد أمية بن عبد شمس قد هرب (من اضطهاد العباسيين) إلى الأندلس فأسس حكماً أموياً هناك استمر زهاء ثلاثة قرون . وبما أن أولئك الامويين قد ساروا ـــ من حيث الاساس ـ على نهج أسلافهم فى الشام فسوف لا نستشهد بسيرتهم المجافية لروح الاسلام ، لأن سيرة أجدادهم فى الشام قد أغنتنا عن ذلك .

وهناك أمر آخر لابد من الالماع إليه فى هذه المناسبة هو أننا سوف ندخل ضمن الامويين ـــ لا من حيث وحدة النسب بالطبع بل من حيث وحدة الاتجاه وتوافق السيرة والخلق ـ أشهر الولاة الذين تعاونوا مع الامويين فى تثبيت أركان حكمهم البغيض ؛ وفى مقدمتهم عمرو بن العاص، وزياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف الثقفى .

وجريا مع هذا المنطق نفسه يمكننا أن لا نعتبر عمر بن عبد العزيز « أموياً » من حيث الطبع .

ولا بد لمن يتصدى للبحث فى تاريخ الامويين أن يشير إلى حقدهم على أبناء عمومتهم الهاشميين ـــ فى الجاهلية وفى صدر الاسلام ـــ وقد لخص الجاحظ [1] . طبيعة ذلك الحقد وعوامله حين قال :

« إن أشرف خصال قريش ـــ فى الجاهلية ـــ اللواء والندوة والسقاية والرفادة وزمزم والحجابة .

وهذه الخصال مقسومة لبنى هاشم وعبد الدار وعبد العزى دون بنى عبد شمس على أن معظم ذلك صار شرفه بعد الاسلام إلى بنى هاشم [2] . وليس لعبد شمس

---

١ ـ رسائل الجاحظ ٦٧ ـ ٧٥

٢ ـ وكان اسم هاشم عمراً . وإلى هذا المعنى يشير ابن الزعبرى :

عمرو العلى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

وقد روى البيت بشكل آخر :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه قوم بمكة مسنتين عجاف

Books.Rafed.net

لقب كريم ، ولا اشتق له اسم شريف . ولم يكن لعبد شمس من يرفع من قدرة ويزيد فى ذكره . ولهاشم عبد المطلب سيد الوادى [١] ومما هو مذكور فى القرآن من فضائل هاشم — عدا حديث الفيل قوله تعالى لإيلاف قريش .

وقد أجمعت الرواة على أن أول من أخذ الايلاف هاشم بن عبد مناف والايلاف [٢] هو أن هاشماً كان رجلا كثير السعة والتجارة فكان يسافر فى الشتاء إلى اليمن وفى الصيف إلى الشام . فشرك فى تجارته رؤساء القبائل من العرب ، وجعل لهم ربحاً فيما يربح . فكفاهم مؤونة الاسفار . وكان فى ذلك صلاح عام ...

ثم حلف الفضول [٣] . وجلالته وعظمته . وهو أشرف حلف كان فى العرب كلها ، وأكرم عقد عقدته قريش فى قديمها وحديثها قبل الإسلام . ولم يكن لبنى عبد شمس فيه نصيب .

فكان هذا الحلف فى بنى هاشم وبنى المطلب وبنى أسد بن عبد العزى وبنى تيم

---

١ — ولقبه شيبة الحمد . قال مطرد الخزاعى :

يا شيبة الحمد الذى تثنى له أيامه من خير ذخر الداخر

المجد ما حجت قريش بيته ودعا هديل فوق غصن ناضر

وقد بلغ أولاد عبد المطلب عشرة بنين وست بنات : العباس وحمزة وعبد الله وأبو طالب (واسمه عبد مناف) والزبير والحرث وحجل والمقوم وضرار وأبو لهب (واسمه عبد العزى) وصفية وأم حكيم البيضاء وعاتكة وأميمة وأروى وبرة . فأم العباس وضرار نتيلة بنت جناب ، وأم حمزة والمقوم وحجل وصفية هالة بنت وهيب ، وأم عبد الله وأبى طالب والزبير (وجميع النساء غير صفية) فاطمة بنت عمرو ، وأم الحرث سمراء بنت جندب وأم أبى لهب لبنى بنت هاجر .

٢ — راجع : ابن هشام ، سيرة النبي محمد . ١/٥٧ — ٥٩ للاطلاع على معانى كلمة « ايلاف » .

٣ — راجع ابن هشام « سيرة النبي محمد » : ١ / ١٤٤ — ١٤٥ للاطلاع على تفاصيل هذا الحلف

Books.Rafed.net

٣٤ ـــــــ

وانحدر أبو سفيان فى حضيض مستويات الأمويين الذين سبقوه .

ومن الغريب أن يلاحظ الباحث أن لكل هاشمى خصما من الأمويين يسير كل منهما فى الاتجاه الذى يسير عليه أجداده .

فهذا هاشم وذاك أمية وهـذا عبد المطلب وذاك حرب ، وهـذا محمـد وذاك أبو سفيان ؛ وهذا على وذاك معاوية ، وهذا الحسين وذاك يزيد ألخ ...

فكان شرف بنى هاشم فى عشيرتهم وكريم خصالهـم وشهامتهم وكرمهم قـد أثارت حفائظ الأمويين فحقدوا عليهم وحاولوا عبثـــاً أن يطاولوهم . وذكر الطـبرى (١) .

أن الحارث حدثه عن محمد بن سعد ، قال : أخبرنا هشام بن محمد قال : حدثنى معروف بن الخربون المكى قال : حدثنى رجل من آل عدوى بن نوفل بن عبد مناف عن أبيه قال : قال وهب بن عبد قصى فى إطعام هاشم قومه الثريد :

تحمل هـاشم ما ضـاق عنه ... وأعيـا أن يقوم به ابن بيض
أنـاهم بالغرائر متأفـات ... من أرض الشام بالبر النقيض
فأوسع أهل مكة من عشيم ... وشاب الخبز باللحم الغريض (٢)

قال : فحسده أمية بن عبد شمس — وكان ذا مال — فتكلف أن يصنع صنيع هاشم . ودعاه إلى المنافرة فكره هاشم لسنه وقدره . ولم تدعه قريش واحفظوة قال : فأنى أنافرك على خمسين ناقة سود حدق تنحرها ببطن مكة ، والحلاء عن مكة عشر سنين . فرضى بذلك أمية . وجعلا الكاهن الخزاعى (١) بينهما . فنفر هاشما عليه . فأخذ هاشم الابل فنحرها وأطعمها من خضرة . وخرج أمية إلى الشام

---

١ — تاريخ الأمم والملوك ٢ / ١٨٠ — ١٨١ .

٢ — متأفات : ممتلئات . البر النقيض القمح النقى . شاب خلط . الغريض الطرى .

١ — جد عمرو بن الحمق الخزاعى أحد خيار المسلمين الذين غدر بهم الأمويون بشكل لا يجيزه الاسلام كما سنرى .

Books.Rafed.net

فأقام بها عشر سنين . فكانت هذه أول عداوة بين هاشم وأمية . وفى عهد عبد المطلب ابن هاشم استأنف الأمويون حقدهم على الهاشميين ، وساروا فى طريق غوايتهم بشكل لم يكن مستساغاً حتى بمقاييس الجاهلية . وتفصيل ذلك على ما يروى ابن الاثير : أنه «كان لعبد المطلب جار يهودى يقال له أذية يتجر وله مال كثير . فغاظ ذلك حرب بن أمية . فأغرى به فتياناً من قريش ليقتلوه ويأخذوا ماله فقتله عامر بن عبد مناف بن عبد الدار وصخر بن عمرو بن كعب التيمى ـ جد أبى بكر فلم يعرف عبد المطلب قاتله فلم يزل يبحث حتى عرفهما ـــ وإذا هما قد استجار بحرب بن أمية . فأتى حرباً ولامه . وطلبهما منه . فأخفاهما . فتغالظا فى القول ... وجعلا بينهما نفيل [1] بن عبد العزى العدوى ـــ جد عمر بن الخطاب ـــ فقال نفيل [2] لحرب: ياأبا عمرو أتتنافر رجلا هو أطول منك قامة ، وأوسم وسامة ، وأعظم هامة ، وأقل منك ملامة ، وأكثر منك ولداً وأجزل منك صفداً ، وأطول منك مدداً

---

١ ـــ الكامل فى التاريخ ٢ / ٩ .

٢ ـــ وقيل هذا هو الذى نافر حرب ـــ مشيراً إلى شعر أبيه الذى مر معنا ذكره ـــ وهو :

أبوك معاهر وأبوه عوف ... وذاد الفيل عن بلد حرام
أبوك يعنى أمية (أبا حرب) ... وأبوه يعنى هاشما أبا عبد المطلب .

٣ ـــ الصفد العطاء . فغضب حرب وقال : من انتكاس الزمان أن جعلت حكما ...
وأخذ عبد المطلب من حرب مئة ناقة فدفعها إلى ابن عم اليهودى ، وارتجع ماله كله إلا شيئاً هلك فغرمه من ماله .

Books.Rafed.net

الفصل الثانى

الأمويون : ضروب إيذائهم للرسول

عندما انبثق نور الإسلام ـ فى مكة وبدأ يغمر سائر مدن الحجاز ـ سعى الأمويون لإطفائه بكل ما لديهم من سطوة وحول . فبدؤا يؤذون الرسول الكريم بمختلف الأساليب ـ بشكل فردى متفرق أحياناً ، وجماعى منظم أحياناً أخرى . وتفنن الأمويون ـ ومن هم على شاكلتهم من المشركين ـ فى ابتداع الوسائل الدنيئة لإيذاء رسول الله .

فبعثوا النظر بن الحرث ، وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار اليهود لتأليبهم على النبى وتسفيه رسالته .

وأرسلوا عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص إلى الحبشة لإقناع النجاشى بطرد المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة تخلصاً من إيذاء المشركين .

وعذبوا المستضعفين من المسلمين ـ كبلال بن رباح الحبشى مؤذن الرسول ، وعمار بن ياسر وأمه وأبيه ، وخباب بن الأرت ، وصهيب بن سنان الرومى ، وعامر بن فهير ، وأبى فكيهة ، ولبيبة[1] ـ جارية بنى مؤمل بن حبيب بن عدى ابن كعب، وزنيرة ، والنهدية ، وأم عبيس ـ وآخرين » .

---

١ ـ وقد أسرف عمر بن الخطاب ـ أثناء شركة ـ فى تعذيبها وتعذيب زبيرة ، وتعذيب أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد بن نفيل بن عبد العزى ـ ابن عمه ـ وخباب بن الارت . وكان شديداً على الرسول كذلك .

« خرج عمر يوما متوشحاً بسيفه يريد رسول الله ... فلقيه نعيم بن عبد الله فقال أين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد محمداً هذا الصابى الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فاقتله . فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك يا عمر . اترى بنى عبد مناف غير تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت!! ... فجاء إلى رسول الله ... فقال حمزة : ائذن له. فإن جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه » ابن هشام : « سيرة النبى محمد » ١ / ٣٦٥ / ٣٦٨ .

Books.Rafed.net

ذلك ما يتصل بإيذاء الأمويين للرسول عن طريق إيذائهم لأتباعه .

ولما رأى الأمويون أن تعذيب أولئك الاتباع لم يزدهم إلا تعلقاً بالإسلام ونبيه وأن رسول الله سائر فى نهجه ـ على الرغم من مقاومتهم له واعتدائهم على اتباعه فكر رؤساؤهم بأسلوب جديد للحد من نشاطه . فقابل وفد منهم مكون من :

عتبة ـ أبى هند أم معاوية ـ وشيبة ابنى ربيعة بن عبد شمس ، وأبى سفيان ابن حرب بن أمية أبا طالب ـ عم النبى ـ ورجوه أن يطلب إلى ابن أخيه أن يكف عن عيب آلهتهم .

غير أن أبا طالب لم يصغ إلى شكواهم فسند ابن أخيه وشجعه على المضى فى رسالته . فلجأ الأمويون إلى أسلوب جديد فى إيذاء الرسول فوصفوه بالسحر ، والجنون عند من يقدم إلى مكة لصدهم عن الإيمان برسالته . فلم يجدهم ذلك نفعاً . فانتدبوا جماعة منهم لمجاهرته بالعداوة والإيذاء ـ وفى مقدمتهم :

عتبة وشيبة إبناً ربيعة ، وعقبة بن أبى معيط ، وأبو سفيان ، والحكم بن أبى العاص ، والعاص بن وائل السهمى ـ أبو عمرو ـ وإبنا عمه نبيه ومنبه . فاستهزأ هؤلاء بالرسول وازدروا به واسمعوه الكلام القارص ، وأروه المعاملة الخشنة .

وكان الحكم بن أبى العاص ـ أبو مروان ـ من أكثرهم إيذاء للرسول واستهزاء به واعتداء عليه الأمر الذى اضطر النبى ـ بعد ذلك ـ إلى نفيه وأولاده إلى الطائف .

ولم يقتصر إيذاء الأمويين للرسول على الرجال بل تعداه للنساء وفى مقدمتهن أم جميل حمالة الحطب(١) . غير أن ذلك كل لم يجدهم نفعاً . فعمدوا إلى مقاطعة

---

١ ـ التى نزلت فى ذمها سورة من القرآن الكريم أنظر : سورة المسد : آية ٤

Books.Rafed.net

الهاشمين . فصمد الهاشميون بوجههم ثلاث سنين عجاف(١).

وأخيراً دبر الامويين ـ واتباعهم ـ مؤامرتهم الكبرى لاغتيال النبي. فأحبطها بهجرته إلى المدينة وتركه علياً فى فراشه إيهاماً للمشركين .

ولما انتقل النبي إلى المدينة استجمع الأمويون قواهم ـ وألبوا مشركى قريش وحلفاءهم : اليهود ـ على مقاومة الدين الجديد فى شخص رسوله الكريم .

وكان قائدهم عتبة بن ربيعة(٢) أبو هند أم معاوية ـ وصهره أبو سفيان وابن عمه الحكم بن أبي العاص ، فنشبت بدر وقتل من الأمويين عتبة وإبنه شيبة وعقبة بن أبي معيط وأسر منهم أبو العاص بن الربيع ، وعمرو بن أبي سفيان . ونجا معاوية من القتل والأسر فهرب من المعركة .

وقد بلغ حقد أبي سفيان على النبي حدا يفوق الوصف لانكسار بعض أوتاد خيمة الشرك التى يحتمى بظلها .

---

١ وقد بلغ وفاء أبي طالب حد الإعجاز فى الدفاع عن الرسول وتحمل ثقل المقاطعة من الناحيتين المادية والمعنوية . فقد عز عليه أن يخذل ابن أخيه ، وهو سيد البطحاء ، كما عز عليه أن يعيش فى الشعب منعزلا عمن حوله من الناس . ولكنه تحمل القطيعة فى سبيل حماية الرسول وصيانة الدعوة الإسلامية . وله قصائد مشهورة فى هذا الصدد ـ نذكر منها على سبيل المثال قوله له (ابن هشام ، سيرة النبي محمد ١ / ٢٨٦ ـ ٢٩٠) .

ولما رأيت القوم لا ود فيهم ... وقد قطعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى ... وقد طاوعوا أمر العدو المزايل
صبرت لهم نفسى بسمراء سمحة ... وأبيض عضب من تراث المقاول
وأحضرت عند البيت رهطى وأخوتى ... وأمسكت من أثوابه بالوصائل
كذبتم وبيت الله نبزى محمداً ... ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل

٢ ـ وكان يطلق على أبي سفيان ـ كما ذكرنا ـ « صاحب العير » ويسمى عتبة « صاحب النفير » وفيهما يضرب المثل فيقال للخامل لا فى العير ولا فى النفير . وسبب تلك التسمية أن أبا سفيان قدم بالعير المحملة بالبضائع من الشام إلى مكة ـ فحماها من المسلمين. أما عتبة فقد استنهض قريش لحرب النبي فوقعت بدر وكان هو أحد ضحاياها .

Books.Rafed.net

فزرع حقده هذا فى نفوس المشركين بمختلف الوسائل المتيسرة لديه .

ومنعهم من البكاء على قتلاهم كما منع الشعراء عن التحدث عنهم أو رثائهم . وطلب من شركائه فى المصيبة أن يتسرعوا بالصبر والجلد .

وقد برهن أبو سفيان ـ بذلك ـ على براعته فى النفاذ إلى مكامن نفوس المشركين . فاستثار نوازعهم النفسية حين خاطبهم بقوله [1] « فأنتم إذا نحتم عليهم وبكيتموهم بالشعر أذهب ذلك غيظكم فأقعدكم عن عداوة محمد وأصحابه ، مع أنه إن بلغ محمداً وأصحابه شمتوا بكم . فيكون أعظم المصيبتين شماتتهم . ولعلكم تدركون ثأركم . فالدهن والنساء على حرام حتى أغزوا محمداً » .

ومن الطريف أن نذكر هنا أن الاسود بن المطلب أصيب له ثلاثة من ولده فى بدر . وكان يحب أن يبكيهم ولكنه توقف عن ذلك خوفاً من أبى سفيان . فبينما هو كذلك إذ سمع إمرأة تجهش بالبكاء . فأراد أن يستحلى الأمر ليبكى هو على قتلاه . فأرسل غلامه وقال له: أذهب فاستفسر هل بكت قريش على قتلاها « لعلى أبكى فإن جوفى قد احترق » فذهب الغلام وعلم : أن الباكية إمرأة ضل بعيرها فهز الأسود رأسه وقال :

أتبكى أن يضل لها بعير ... ويمنعها من النوم السهود
ولا تبكى على بدر ولكن ... على بدر تصاغرت الخدود

فكان أبو سفيان إذن شيخ المؤلبين على حرب رسول الله بعد بدر . فعمل ذلك أثناء جمعه جموعهم ، وأثناء تأليبه أياهم ، وفى إخراجه النســـاء معهم إلى أحد[2].

---

١ ـ الواقدى : مغازى رسول الله ص ٩٠ ـ ٩٣ .

٢ ـ خرج أبو سفيان بهند وزوجة أخرى وصفوان بن أمية بأمرأتين وطلحة بأمرأته والحارث بن هشام بأمرأته . وخرجت خناس بنت مالك مع ابنها والحارث بن سفيان بأمراته وكنانة بأمرأته وسفيان بن عوف بأمرأته والنعمان وجابر إبناً مسك بأمهما .

Books.Rafed.net

وقد مروا الابواء فى طريقهم إلى أحد — فاقترح عليهم أبو سفيان أن ينبشوا قبر آمنة بنت وهب أم الرسول (وكانت قد توفيت هناك وهى راجعة بالرسول ـ وعمره سنتان ـ إلى مكة بعد زيارتها لإخوانها من بنى عدى بن النجار) وقال لهم :

فإن يصب محمد من نسائكم أحداً قلتم : هذه رمة أمك .

فان كان باراً ـ كما يزعم ـ فلعمرى ليفادينكم برمة أمه .

وإن لم يظفر بإحدى نسائكم فلعمرى فليفدين أمه بمال كثير . فاستشار أبو سفيان أهل الرأى من قريش فى ذلك .

فقالوا : لا تذكر من هذا شيئاً »[1].

وقد ظهر أثر أبى سفيان فى تأليب المشركين على حرب النبى ـ بالإضافة إلى ما ذكرنا ـ فى تهيأته الجو لمعركة أحد ، وفى حرصه الشديد على وضع الجيش بشكل يساعده على دحر المسلمين ، وفى موقفه من بنى عبد الدار فى مسألة المحافظة على اللواء أثناء القتال .

فوضع على ميمنة المشركين خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل. وجعل على الخيل عمرو بن العاص . وخاطب بنى عبد الدار فى مسألة حمل

---

١ — الواقدى : مغازى رسول الله ص ١٥٨ — ١٦٠ . ولأبى سفيان — وحلفائه المشركين — مواقف أخرى كثيرة من هذا النوع البشع . من ذلك مثلا : التحدث مع المشركين حول أبنتى النبى زينب وأم كلثوم — وكان النبى قد زوج أولاهما من أبى العاص ابن الربيع بن عبد العزى والثانية من عتبة بن أبى لهب وذلك قبل أن ينزل عليه الوحى . فلما نزل عليه الوحى آمنت بناته به وبقى أزواجهن . فمشى نفر من قريش « إلى أبى العاص بن الربيع فقالوا: فارق صاحبتك بنت محمد ونحن نزوجك أى أمرأة شئت من قريش. فقال لا ها الله !! لا أفارق صاحبتى ... ثم مشوا إلى الفاسق عتبة بن أبى لهب فقالوا له طلق بنت محمد ونحن ننكحك أى أمرأة شئت من قريش . فقال إن أنتم زوجتمونى ابنة أبان بن سعيد بن العاص فارقتها . فزوجوه ابنة سعيد بن العاص ففارقها » . راجع ابن أبى الحديد ، شرح نهج البلاغة ٣ / ٣٠٠ الطبعة الأولى بمصر

Books.Rafed.net

اللواء فقال[1]:

« يابنى عبد الدار نحن نعرف أنكم أحق باللواء منا . إنما أوتينا - يوم بدر - من اللواء . وإنما يؤتى القوم من قبل لوائها . فالزموا لواءكم وحافظوا عليه . أو خلوا بيننا وبينه .

فغضب بنو عبد الدار وقالوا : نحن نسلم لواءنا ؟ لاكان هذا أبداً .

ثم أسندوا اللواء بالرماح واحدقوا به » .

وكانت هند زوج أبى سفيان لا تقل تحمساً عن زوجها فى تأليب المشركين . وهى التى أغرت وحشياً على قتل عم النبى[2].

ذلك جانب من جوانب تعبير الأمويين عن مقتهم للدين الحنيف . فقد شنوها - كما رأينا - حرباً شعواء لا هوادة فيها على النبى . ولم يثنهم اندحارهم فى بدر عن مواصلة الكفاح المرير ضد الإسلام ومعتنقيه . فوقعت أحد — كما رأينا .

وكان الأمويون وحلفاؤهم من المشركين أن يناولوا من الرسول فيها بعد أن قتلوا عمه الحمزة ومثلوا به على شكل من الوضاعة قل أن يحدث فى التاريخ .

---

١ — الواقدى : مغازى رسول الله ص ١٧٢

٢ — وكان وحشى عبدا لابنة الحارث بن عامر بن نوفل . وقد قتل أبوها يوم بدر فقالت لوحشى إنك حر إن قتلت محمداً أو حمزة أو عليا لأنها لم تر فى المسلمين كفوءا لأبيها غيرهم .

ومن الانصاف للتاريخ أن نشير هنا إلى أن حمزة لم يقتل نتيجة لشجاعة وحشى بل لظروف استثنائيه غير متوقعة . فقد كان صائماً ، وكمن له وحشى فقصده الحمزة فاعترض سبيله سباع ابن أم نمار فصرعه حمزة وأقبل إلى وحشى فزلت قدمه فضربه وحشى فأرداه قتيلا . فأقبلت هند فرحة فخلعت حليها وقدمتها لوحشى .

ثم بقرت بطن حمزة وأخرجت كبده فمضغتها وقطعت مذاكيره وأذنيه وجدعت أنفه . وكان ألم النبى على حمزة ممضا فوقف على جثته وقال : « ما وقفت موقفاً قط أغيظ إلى من هذا ... أنى لن أصاب بمثلك أبداً » الواقدى : «مغازى رسول الله» ص ٢٢١ / ٢٢٢.

Books.Rafed.net

ولولا أنه خيل إليهم أن الرسول قد قتل لما رجعوا من ساحات القتال .

فلما بلغهم أن الرسول ما زال على قيد الحياة اجمعوا أمرهم على الرجوع إليه. فصدهم عن ذلك معبد الخزاعى كما هو معروف[1]. غير أن إخفاق أبى سفيان فى مؤامرته المسلحة لوأد الإسلام ونبيه ـ فى بدر وأحد ـ لم يثنه عن مواصلة الكفاح المرير لإثارة وقائع أخرى ضد المسلمين .

فألب الأحزاب فى حرب الخندق وما بعدها . ولم يعلن إسلامه ـ فى الظاهر ـ كما سنرى إلا حين رأى أن ذلك أجدى من السيف فى تحطيم الإسلام .

ويصدق الشىء نفسه على قادة الأمويين آنذاك من النساء والرجال .

ولما رأى الأمويون فشلهم المتواصل فى مقاومة النبى والاسلام لجأوا إلى اتباع أسلوب جديد للإيقاع بالاسلام . وكان هذا الأسلوب ـ فى واقعه ـ أكثر الأساليب إيجاعاً للعقيدة الاسلامية . فتقمص قادتهم الاسلام والتزموا ببعض مظاهره ليتمكنوا من إعلانها حرباً شعواء على الدين من داخله ـ بعد أن أعياهم أمره فى حربهم أياه من الخارج .

فأسلم ـ فى الظاهر ـ قائدهم أبو سفيان يوم فتح مكة بعد أن لجأ إلى العباس عم النبى مضطراً ، والتمسه أن يأخذه إلى الرسول . فلما أتى به العباس .

قال له رسول الله « ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟

فقال : بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! !

والله لقد علمت لو كان معه إله غيره أغنى عنا . فقال : ويحك :

ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ قال بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! ! أما هذة ففى النفس منها شىء .

---

١ ــ فقد لقى معبد أبا سفيان واتباعه بالروحاء يريدون الرجوع إلى أحد للاجهاز على النبى والمسلمين . فاخبرهم بأن النبى كان قد نهيأ برهط كثيف من اتباعه للخروج فى تعقيب المشركين وأشار عليهم بضرورة تفادى ملاقاة المسلمين خشية من الهزيمة . فثناهم عن رأيهم القديم .

Books.Rafed.net

فقال له العباس ويحك !! أسلم قبل أن يضرب عنقك »[١].

وقد حاول أبو سفيان أن يضبط أعصابه التى نشأت على الكفر وتشربت ببغض الاسلام فتظاهر بنبذ عبادة الاوثان والاعتراف بالدين الجديد . ولكن ذلك ـ مع هذا ـ لم يعصمه ـ فى مناسبات كثيرة ـ من غمر الدين الحنيف . من ذلك مثلا ما ذكره ابن هشام[٢] حينما خاطب الحرث بن هشام أبا سفيان بعد فتح مكة ـ على أثر سماعهما المؤذن يؤذن : « أما والله لو أعلم أن محمداً نبى لاتبعته !! فقال أبو سفيان لا أقول شيئاً . لو تكلمت لأخبرت عنى الحصا » .

فلو كان أبو سفيان مسلماً لا نبرى لتنفيذ زعم ذلك المشرك البغيض .

أما إقراره لرأى الحرث ـ ضمناً ـ كما يبدو من عبارته فدليل عن وثنيته .

أما السيدة هند ـ زوجة أبى سفيان ـ فقد بايعت الرسول مضطرة ـ بعد فتح مكة ـ فتقمصت رداء الاسلام . فلما تقدمت هند لمبايعة النبى « اشترط شروط الاسلام عليها . فأجابته بأجوبة قوية . فمما قاله لها : تبايعينى على أن لا تقتلى اولادك !! فقالت هند :

أما نحن فقد ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً يوم بدر . فقال لها : وعلى أن لاتزنين !! فقالت هند وهل تزنى الحرة ؟ فالتفت رسول الله إلى العباس وتبسم[٣].

وكان المسلمون فى عهد الرسول، يسمون أبا سفيان ومن هم على شاكلته بالطلقاء .

---

١ ـ ابن خلدون : « كتاب العبر » الخ ... ٢ / ٢٣٤

٢ ـ سيرة النبى محمد ٤ / ٢٣ .

٣ ـ ابن الطقطقى : «الفخرى فى الآداب السلطانية» ص٧٦ ـ ٧٧ . لعل ابتسامة الرسول تشير إلى العهر الذى عرفت فيه هند واتهام العباس بن عبد المطلب بالاجتماع معها على زنى ، كما سنرى .

Books.Rafed.net

الأمويون والعقيدة الإسلامية

لقد مر بنا وصف موجز للصراع بين الأمويين ومبادىء الإسلام فى حياة الرسول . ونود أن ننتقل إلى البحث فى ذلك الصراع « بين الامويين ومبادىء الإسلام » — باجلى أشكاله — فى محاربتهم على بن أبى طالب أثناء خلافته ، وفى اغتصابهم أمرة المسلمين . وكان قائدهم — آنذاك — معاوية نجل أبى سفيان قائد الأمويين فى حربهم مع النبى .

وإذا كان الفشل قد كتب للأمويين فى صراعهم مع النبى — لاعتصامهم بالإسلام بشكل سافر — فإن القضاء لم يكن فى متناول ابن أبى طالب لتقمصهم — فى الظاهر — رداء الإسلام المنتقص .

ومهما يكن من الأمر فإن غدر الأمويين بعلى — تحت زعامة معاوية — قد أصاب روح الإسلام قبل أن يصيب أبا تراب . فقد انفسح باغتيال الإمام المجال واسعاً أمام قوى الشر التى حبسها على فى نطاق ضيق من خشية الله ومبادىء الدين الحنيف . فتلاشت من القلوب حرارة الإيمان التى كانت تجمع بين قلب الخليفة الكبير وقلوب رعاياه .

واستهان الولاة والحكام بتطبيق مبادىء الدين على شئون الحياة .

وعمدوا إلى إسكات الجماهير بوسائل فاسدة من الرشوة والملاينة أو الارهاب والتخويف . فذوى روح الإسلام وانطوت مبادؤه على نفسها بدلا من أن تسير فى طريق التوسع والانتشار .

وكانت حصيلة ذلك انتشار الندم والالحاد فى جسم المجتمع العربى الإسلامى ، وتدنى المستويات الخلقية الرفيعة بين الحكام والمحكومين على السواء .

فبرز : الاستهتار ، والظلم ، والخروج على القرآن وتعاليم الرسول من جهة الحاكمين ، والملق والمداهنة والانقياد من جهة الرعايا .

Books.Rafed.net

واختفى القائلون بالحق وراء سحب المطاردة والاضطهاد ، فأصبح المطالبون بحقوقهم التى ضمنها لهم الإسلام « زنادقة » و « ملحدين » و « ورفضة » وصار الوصوليون المنافقون أصحاب الخطوة والكلمة النافذة .

ذكر الزبير بن بكار فى « الموفقيات » عن المغيرة بن شعبة أنه قال : قال لى عمر بن الخطاب يوما يامغيرة هل أبصرت بعينك العوراء منذ اصيبت ؟ قلت لا . قال : أما والله ليعورن بنو أمية الاسلام كما أعورت عينك هذه . ثم ليعمينه حتى لا يدرى أين يذهب ولا أين يجىء[1] . .

ورى : « إن يزيد بن معاوية قال لمعاوية — يوم بويع له عهده فجعل الناس يمدحونه ويطرونه — يا أمير المؤمنين ما ندرى أنخدع الناس أم يخدعوننا ! ! ! فقال له معاوية : كل من أردت خديعته فتخادع لك حتى تبلغ منه حاجتك فقد خدعته [2] »

ورحم الله عمر بن عبد العزيز حين نظر إلى « ولاة » المسلمين فى بعض الأيام فقال :

الوليد بالشام والحجاج بالعراق وقدة بن شريك بمصر وعثمان بن يوسف باليمن امتلات الأرض والله جورا [2] » .

ومن الغريب أن يستولى الأمويون على خلافة رسول الله ويستأثروا بها دون سائر المسلمين والعرب وأن يتلقفوها كالكرة واحدا بعد الآخر منذ مصرع رابع الخلفاء الراشدين دون أن يكون لهم أدنى حق فى ذلك .

فهل يرشحهم كرههم للنبى وسعيهم لقتلة وتعذيب اتباعه لتسنم أمرة المسلمين ؟

١ — ابن الحديد ، شرح نهج البلاغة ٣ / ١١٥ .

٢ — المبرد ، الكامل فى اللغة والأدب ١ / ٣٠٥ مطبعة مصطفى محمد بمصر عام ١٣٥٥ هـ ومن المضحك حقاً أن يخاطب يزيد أباه يا أمير المؤمنين ولسنا نعلم حق معاوية فى أمرة المؤمنين أو مؤهلاته لتلك الامرة أو الأسلوب الذى اتبعه للحصول على تلك الامرة . غير أن معاوية، من الجهة الثانية أمير « المؤمنين » الذين هم من طراز ولده يزيد .

Books.Rafed.net

أم أن خروجهم على أسس العقيدة الاسلامية ــ كما سنرى ــ هو الذى هيأهم لارتقاء منبر النبي ؟

الواقع : أن مواقفهم الدنيئة فى الجاهلية وفى حياة الرسول وفى الفترة التى نؤرخها فى هذه الدراسة تجعلهم أبعد الناس عن تسلم إمرة المسلمين .

قال الجاحظ ، فعندها استوى معاوية على الملك واستبد على بقية الشورى وعلى جماعة المسلمين من الانصار والمهاجرين فى العام الذى سموه عام الجماعة . وماكان عام جماعة بل كان عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة .

والعام الذى تحولت فيه الامامة ملكا كسرويا والخلافة غصباً قيصريا ، ولم يعد ذلك أجمع الضلال والفسق . ثم ما زالت معاصيه من جنس ما حكينا وعلى منازل ما رتبنا[1]

حتى رد قضية رسول الله رداً مكشوفاً وجحد حكمه جحدا ظاهرا فى ولد الفراش وما يجب للعاهر[2] مع اجتماع الأمة أن سمية لم تكن لأبى سفيان فراشا ، وأنه إنما كان بها عاهرا . فخرج بذلك من حكم الفجار إلى حكم الكفار .

وليس قتل حجر بن عدى ، وإطعام عمرو بن العاص خراج مصر .

وبيعة يزيد الخليع ، والاستئثار بالفيء ، واختيار الولاة على الهوى ، وتعطيل الحدود بالشفاعة والقرابة ، من جنس جحد الأحكام المنصوصة والشرائع المشهورة والسنن المنصوبة ، وسواء فى باب ما يستحق من الكفار جحد الكتاب ورد السنة إذا كانت السنه فى شهرة الكتاب وظهوره ، إلا أن احدهما أعظم وعقاب الآخرة عليه أشد .

---

١ ــ يشير الجاحظ بذلك إلى فقرات سالفة من رسالته التى بين أيدينا حيث ذكر فيها جانباً من موبقات معاوية .

٢ ــ يشير إلى قضية استلحاق معاوية زياد بن سمية بأبى سفيان .

Books.Rafed.net

فهذه أول كفرة كانت فى الأمة . ثم لم تكن إلا فيمن يدعى امامتها والخلافة عليها . على أن كثيرا من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك إكفاره . وقد أربت عليهم نابتة عصرنا ومبتدعة دهرنا فقالت : لا تسبوه فان له صحبة ، وسب معاوية بدعة ، ومن يبغضه فقد خالف السنة .

فزعمت أن من السنة ترك البراءة ممن جحد السنة !!

ثم الذى كان من يزيد ابنه ومن عماله وأهل نصرته ، ثم غزو مكة ورمى الكعبة واستباحة المدينة ، وقتل الحسين فى أكثر أهل بيته مصابيح الظلام وأوتاد الإسلام . . . فأحسبوا قتله ليس بكفر .

وإباحة المدينة وهتك الحرمة ليس بجاحد

كيف تقولون فى رمى الكعبة وهدم البيت الحرام وقبلة المسلمين ؟

فإن قلتم ليس ذلك أرادوا بل إنما أرادوا المتحرز به والمتحصن بحيطانه!! فما كان فى حق البيت وحريمه أن يحصروه فيه إلى أن يعطى بيده !!

وأى شىء بقى من رجل قد أخذت عليه الأرض إلا موضع قدمه !!

وأحسبوا ما رووا عليه من الاشعار ـــ التى قولها شرك والتمثل بها كفر ـــ شيئا مصنوعا .

كيف نصنع بنقر القضيب بين ثنيتى الحسين !!

والكشف عن عورة بن الحسين عند الشماتة فى بلوغه !! . . كما يصنع أمير جيش المسلمين بذرارى المشركين !!

وكيف تقولون فى قول عبيدالله بن زياد لإخوته وخاصته : دعونى أقتله فانه بقية هذا النسل فأحسم به هذا القرن وأميت به هذا الداء وأقطع به هذه المادة .

خبرونا علام تدل هذه القسوة وهذه الغلظة !! بعد أن شفوا انفسهم بقتلهم ونالوا ما احبوا فيهم !!

Books.Rafed.net

أتدل على نصب ، وسوء رأى وحقد وبغضاء ونفاق وعلى يقين مدخول وإيمان مخروج ؟

أم تدل على الإخلاص وعلى حب النبي والحفظ له وعلى براءة الساحة وصحة السريرة ؟ فإن كان على ما وصفنا لا يعدو الفسق والضلال ، وذلك أدنى منازله .

فالفاسق ملعون ومن نهى عن لعن الملعون فملعون .

وزعمت نابتة عصرنا ومبتدعة دهرنا أن سب ولاة السوء فتنة ، ولعن الجورة بدعة ، وإن كانوا يأخذون السمى بالسمى والولى بالولى والقريب بالقريب ، وأخافوا الأولياء وأمنوا الاعداء وحكموا بالشفاعة والهوى واظهار الغدرة والتهاون بالأمة والقمع للرعية والتهم فى غير مداراة ولاتقية ، وإن عدا ذلك إلى الكفر وجاوز الضلال إلى الجحد ، فذاك اضل ممن كف عن شتمهم والبراءة منهم . على أنه ليس من استحق اسم الكفر بالقتل كمن استحقه برد السنة وهدم الكعبة .

وليس من استحق اسم الكفر بذلك كمن شبه الله بخلقه .

وليس من استحق الكفر بالتشبيه كمن استحقه بالتجوير . والنابتة — فى هذا الوجه — أكفر من يزيد وابيه وابن زياد وابيه .

ولو ثبت أيضاً — على يزيد — أنه تمثل بقول ابن الزبعرى :

ليت اشياخى ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

لاستطاروا واستهلوا فرحا ثم قالوا يايزيد لاتسل

قد قتلنا الغـــر من ساداتهم وعدلنـــاه ببدر فاعتـــدل

كان تجوير النابتى لربه وتشبيهه بخلقه أعظم من ذلك وافضع ، وعلى أنهم مجمعون على أنه ملعون من قتل مؤمنا متعمدا أو متأولا .

فإذا كان القاتل سلطانا جائراً وأميراً عاصياً لم يستحلوا سبه ولا خلعه ولا نفيه

Books.Rafed.net

ولا عيبه ، وإن أخاف الصلحاء وقتل الفقهاء وأجاع الفقير ، وظلم الضعيف ، وعطل الحدود والثغور ،وشرب الخمور واظهر الفجور ! ! !

ثم ما زال الناس يتسكعون مرة ويداهنونهم مرة ، ويقاربونهم مرة ويشاركونهم مرة إلا بقية ممن عصمه الله .

حتى قام عبد الملك بن مروان وابنه الوليد وعاملهما الحجاج بن يوسف ومولاه يزيد بن أبي مسلم .

فأعادوا على البيت بالهدم وعلى حرم المدينة بالغزو .

فهدموا الكعبة واستباحوا الحرمة وحولوا قبلة واسط .

وأخروا صلاة الجمعة إلى مغيربان الشمس . فاذا قال رجل لأحدهم : اتق الله فقد أخرت الصلاة عن وقتها قتله ـــ على هذا القول ـــ جهارا غير ختل وعلانية غير سر .

ولا يعلم القتل على ذلك إلا اقبح من إنكاره . فكيف يكفر العبد بشيء ولا يكفر بأعظم منه ! !

وقد كان بعض العالمين ربما وعظ الجبابرة وخوفهم العواقب وأراهم أن في الناس بقية ينهون عن الفساد في الأرض حتى قام عبد الملك بن مروان والحجاج ابن يوسف فزجرا عن ذلك وعاقبا عليه وقتلا فيه . فصاروا لا يتناهون عن منكر فعلوه .

فأحسب تحويل الكعبة كان غلطا وهدم البيت كان تأويلا ، واحسب ماروا ـــ من كل وجه ـــ انهم كانوا يزعمون أن خليفة المرء في أهله ارفع عنده من رسوله إليهم [1] ، باطلا ومسموعا مولدا ! واحسب وسم أيدي المسلمين ونقش أيدي المسلمات وردهم ـــ بعد الهجرة ـــ إلى قراهم .

---

١ ـــ يشير الجاحظ إلى مخاطبة الحجاج للعراقيين في إحدى خطبه « ويحكم أخليفة أحدكم في أهله أكرم عليه أم رسوله اليهم ؟ » يريد بذلك تفضيل مقام الخلافة على مقام الرسالة راجع « العقد الفريد » لابن عبد ربه ٣ / ٢٥٥ .

Books.Rafed.net

وقتل الفقهاء وسب أئمة الهدى والنصب لعترة الرسول لا يكون كفرا ! !

كيف تقول فى جمع ثلاث صلوات — فيهن الجمعة — ولا يصلون إلا أولاهن حتى تصير الشمس على اعالى الجدران كالملاء المعصفر ! !

فإن نطق مسلم خبط بالسيف وأخذته العمد وشك بالرماح . وإن قال قائل : اتق الله . أخذته العزة بالاثم . ثم لم يرض إلا بنثر دماغه على صدره وبصلبه حيث تراه عياله .

ومما يدل على أن القوم لم يكونوا إلا فى طريق التمرد على الله والاستخفاف بالدين والتهاون بالمسلمين والابتذال لأهل الحق أكل امرائهم الطعام وشربهم الشراب على منابرهم أيا جمعهم وجموعهم . . .

وقد كانت هذه الأمة لا تتجاوز معاصيها الاثم والضلال إلا ما حكيت لك عن بنى أمية وبنى مروان وعمالهم[1] » .

ذلك رأى الجاحظ فى الامويين ومدى صلتهم بالإسلام . وهو الرأى الغالب عند جمهرة مفكرى المسلمين ومؤرخيهم .

وقد ذهب المقريزى — بما له من مكانة مرموقة بين المؤرخين — إلى القول بأنه كان يعجب من تطاول الامويين إلى الخلافة وكيف حدثتهم أنفسهم بذلك !! وأين بنو أمية ، وبنو مروان بن الحكم - طريد رسول الله - ولعينه - من هذا الحديث مع شدة عداوة بنى أمية لرسول الله ومبالغتهم فى أذاه وتماديهم فى تكذيبه ! !

---

* ويلوح أن الحجاج لم يسأل نفسه الخبيثة حتى عن معنى كلمة خلافة . فخليفة الشخص من ينوب عنه . هذا إذا فرضنا — جدلا — أن الأمويين خلفاء بهذا المعنى، فهل يكونون أفضل ممن خلفهم ؟

١ - الجاحظ : « رسائل الجاحظ » ص ٢٩٣ - ٢٩٨ .

Books.Rafed.net

إذ ليس لبنى أمية سبب إلى الخلافة ولا بينهم وبينها نسب . فاسباب الخلافة معروفة فمنهم من ادعاها لعلى ــ باجتماع القرابه والسابقة والوصية بزعمهم . فإن كان الأمر كذلك فليس لبنى أمية فى شىء من ذلك دعوى عند أحد من أهل القبلة. وإن كانت لاتنال إلا بالسابقة فليس لهم فى السابقة قديم مذكور . بل كانوا ــ إذا لم تكن لهم سابقة ولم يكن فيهم ما يستحقون به الخلافة ــ لم يكن فيهم ما يمنعهم منها أشد المنع كان أهون وكان الأمر عليهم ايسر !! فقد عرفنا كيف كان أبوسفيان فى عداوته للنبي وفى محاربته وفى إجلابه عليه . . . ولا يكون أمير المؤمنين إلا أولاهم بالإيمان واقدمهم فيه . هذا وبنو أمية قد هدموا الكعبة وجعلوا الرسول دون الخليفة ، وختموا فى اعناق الصحابة وغيروا أوقات الصلاة، ونقشوا اكف المسلمين . . ثم إنى ماذا أقول ــ ياعجبا ــ كيف يستحق خلافة رسول الله على أمته شرعا من لم يجعل له حقاً فى سهم ذى القربى ؟ ثم كيف يقيم دين الله من قاتل رسول الله ونابزه وكايده وبذل جهده فى قتله ؟ وليت إذ ولى بنو أمية الخلافة عدلوا وانصفوا !! بل جاروا ــ فى الحكم ــ وعسفوا واستأثروا بالفى كله وحرموا بنى هاشم جملة ، وزادوا فى العتو والتعدى حتى قالوا : إنما ذو القربى قرابة الخليفة منه . وحتى قرروا ــ عند أهل الشام ــ أن لا قرابة لرسول الله يرثونه إلا أولاد أمية . . . وحتى صعد الحجاج بن يوسف يوما أعواد منبره وقال ــ على رؤوس الاشهاد : أرسولك أفضل أم خليفتك ؟ يعرض بأن عبد الملك بن مروان أفضل من رسول الله [1] ، .

---

١ ــ المقريزى : النزاع والتخاصم ص ٥ ــ ٨و٢٧ ــ ٢٨ .

Books.Rafed.net

الفصل الرابع

أساليب تثبيت الحكم عند الأمويين

لقد مر بنا القول بأن الأمويين أبعد المسلمين ـ من الناحية الشرعية ـ عن تولى خلافة رسول الله . ولكنهم ـ مع هذا ـ قد ارتفعوا إلى مستويات الحكم فى البلاد الإسلامية . وكان ارتفاعهم هذا ، كما سلف أن ذكرنا ، نتيجة للأساليب الفاسدة التى استعانوا بها فى هذا المضمار . فلا عجب أن رأيناهم يستعينون بالأساليب الفاسدة أيضاً لتثبيت قواعد حكمهم الممقوت . وتتلخص أساليبهم تلك فى الأمور التالية :

ـ ١ ـ

اتباعهم سياسة الشدة واللين

اتباعهم سياسة الشدة ـ ووصولهم إلى ذروتها من جهة ، وتبنيهم سياسة اللين وبلوغهم منتهاها من جهة أخرى .

وقد رافق ذلك ونتج عنه تبذير لأموال المسلمين وصرفها فى غير مواضعها المشروعة من جهة ، وحبس لها عن مستحقيها من جهة ثانية . وقد جرى ذلك كله حسب مستلزمات الظروف التى كانوا يعيشون فيها. فأثرت تلك السياسة ـ بجناحيها ـ فى الخلق العربى الإسلامى اسوأ تأثير .

وتعدى أثرها العهد الأموى فانتشر ـ عن طريق الوراثات الاجتماعية ـ بين العرب المسلمين جيلا بعد جيل حتى أدرك العهد الذى نعيش فيه ، وربما انتقلت آثاره إلى الأجيال القادمة

وإلى القارىء طائفة من الأمثلة لتأييد وجاهة ما ذهبنا إليه قال ابن عبد ربه[1]

---

١ ـ العقد الفريد : ١ / ١٩٤ .

Books.Rafed.net

قدم يزيد بن منبه على معاوية بن أبي سفيان من البصرة ـ وهو أخو يعلى بن منبه صاحب جمل عائشة ـ فلما دخل على معاوية شكا إليه دينا لزمه . فقال معاوية : يا كعب اعطه ثلاثين ألفاً . فلما ولى قال معاوية وليوم الجمل ثلاثين ألفاً أخرى .

ولا ندرى كيف استحق الرجل ذلك المبلغ الضخم من مال المسلمين !! وهل الخروج على الامام على فى حرب الجمل جهاد يستحق عليه الناس تناول هذا المبلغ الكبير من بيت المال ؟

وإذا كان يزيد قد استحق ذلك المبلغ الجسيم لأن أخاه كان صاحب جمل عائشة فما هى حصة يعلى ؟

هل كان معاوية يعتبر أصحاب الجمل وأصحاب صفين ـ كما سنرى ـ من ذوى السابقة فى « الإسلام » ؟ فيجعل منزلتهم كمنزلة البدريين عند عمر ؟

ذلك جانب من جوانب الاعتداء على حرمة الإسلام فى سبيل تثبيت قواعد الحكم الاموى .

أما الجوانب الأخرى ـ فى هذا الصدد ـ فتظهر فى الأمور التالية :

عندما أراد معاوية أن يعزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة ويستعمل بدله سعيد بن العاص بلغ ذلك المغيرة فقدم على معاوية واقترح عليه تولية يزيد ـ من بعده ـ « خليفة » للمسلمين . فثنى ذلك معاوية عن عزله وأوجد فى نفسه ميلا لتخليف يزيد . فمضى المغيرة ، حتى دخل على يزيد وقال له : أنه قد ذهب أعيان أصحاب النبي . . وبقى أبناؤهم ، وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأيا وأعلمهم بالسنة والسياسة .

ولا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة !! ... فدخل يزيد على أبيه وأخبره بما قال المغيرة . فأحضر معاوية المغيرة .

Books.Rafed.net

فقال المغيرة يا أمير المؤمنين قد رأيت ما كان من سفك الدماء ... وفى يزيد منك خلف فاعقد له . فإن حدث بك حادث كان كهفا للناس ...

قال معاوية : ارجع إلى عملك وتحدث مع من تثق إليه فى ذلك وترى ونرى .

وسار المغيرة[1] حتى قدم الكوفة وذاكر من يثق إليه أمر يزيد . فأجابوا إلى بيعته . فأوفد منهم عشرة ... وأعطاهم ثلاثين ألف درهم وجعل عليهم ابنه موسى .

وقدموا على معاوية فزينوا له بيعة يزيد... فقال معاوية لموسى : بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم ؟ قال بثلاثين ألفاً .

قال : لقد هان عليهم دينهم[2] . فقرى عزم معاوية على البيعة ليزيد .

فكتب إلى عماله بتقريظ يزيد ، وأن يوفدوا إليه الوفود من الأمصار . فكان فيمن أتاه محمد بن عمرو من المدينة والأحنف بن قيس فى وفد أهل البصرة فتبادلوا الكلام فى يزيد .

ثم قام يزيد بن المقنع العذرى فقال : هذا أمير المؤمنين ـ وأشار إلى معاوية ـ فإن هلك فهذا ـ وأشار إلى يزيد ـ ومن أبى فهذا ـ وأشار إلى سيفه .

فقال له معاوية : اجلس فأنت سيد الخطباء .

وخطب معاوية فذكر يزيد فمدحه وقال : من أحق بالخلافة منه فى فضله وعقله وموضعه ! ![3] .

---

١ ـ وقد علق المغيرة على ذلك فقال « لقد وضعت رجل معاوية فى غرز بعيد الغاية على أمة محمد وفقت عليهم فتقا لا يرتق أبداً » . كل ذلك فى سبيل بقائه أميراً على الكوفة .

٢ ـ وقد فات معاوية أن يتذكر انه اشترى دين المغيرة بولاية الكوفة وأنه باع دينه باغتصاب خلافة المسلمين . وجميعها أمور متشابهة من حيث الأساس .

٣ ـ ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ٣/٢٤٩ـ٢٥١ . ويروى ان معاوية ـ فى الجلسة التاريخية الآنفة الذكر ـ سأل الأحنف بن قيس عن رأيه فى يزيد : فأجابه الأحنف : نخافكم إن صدقنا كم ونخاف الله إن كذبنا . وأنت أعلم بيزيد فى ليله ونهاره ...

Books.Rafed.net

منكم[١] منكراً فليغيره بيده . فإن لم يستطع فبلسانه . فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان[٢] » .

أما القصص والأخبار المكذوبة فإلى القارىء طائفة منها تاركين تلمس جوانب الوضع فيها إلى القـــارىء نفسه . ولنبدأ بقصة نفى الدهر والزنى عن هند أم معاوية(٣) :

تحدث عتبة مع ابنته هند فى أحد الأيام حول رمى الناس إياها بالفجور على أثر اتهام زوجها الفاكه إياها بذلك وطلاقه إياها الأمر الذى أدى إلى زواجها بأبى سفيان ، وأخبر عتبة إبنته قائلا : إنك إذا كنت زانيه فإننى سأدس إلى الفاكه من يقتله فينقطع عنك القالة . فحلفت أنهـــا لا تعرف لنفسها جرماً وإنه لكاذب عليها .

فقال عتبة للفاكه إنك قد رميت إبنتى بأمر عظيم فهل لك أن تحاكمنى إلى بعض الكهنة ؟ فخرج الفاكه فى جماعة من بنى مخزوم ، وخرج عتبة فى جماعة من بنى عبد مناف وأخرج معه هند ونسوة معها . فلما شارفوا بلاد الكاهن تغيرت حال هند وتنكر أمرها واختطف لونها . فرأى ذلك أبوها .

فقال لها أبوها : إنى أرى ما بك . وما ذاك إلا لمكروه عندك . فهلا كان هذا قبل أن يشتهر عند الناس مسيرنا ؟

فقالت : يا أبتى إن الذى رأيت منى ليس لمكروه عندى ولكنى أعلم أنكم تأتون بشراً يخطىء ويصيب ولا آمن أن يسمنى ميسما يكون على عاراً عند نساء مكة .

---

١ ـ كذا فى الأصل المطبوع والصواب: من رأى منكم « الناشر » .

٢ ـ ابراهيم المالكى ، الفتوحات الوهبية ص ٢٦١ .

٣ ـ سوف نذكر قصة عهر السيدة هند السيدة هند فى مكان آخر من هذه الدراسة كما رواها كبار المؤرخين . المؤلف .

Books.Rafed.net

ودراستنا هذه تحتوى على طائفة كبيرة من تلك الأمثلة . ويدخل ضمن تلك الأساليب تصرف آخر توضحه الحادثة الطريفة التالية أوضح تمثيل .

« دخل اياس بن معاوية الشام وهو غلام . فقدم خصما ـ إلى باب القاضى ـ فى أيام عبد الملك بن مروان . فقال له القاضى أما تستحى تخاصم ـ وأنت غلام ـ شيخا كبيراً ؟

فقال الغلام : الحق أكبر منه . فقال القاضى اسكت ويلك ! ! فقال الغلام فمن ينطق بحجتى ؟ .

فقام القاضى ودخل على عبد الملك وأخبره . فقال له عبد الملك : إقض حاجته وأخرجه من الشام لكيلا يفسد علينا الناس[1] . »

« وخطب معاوية فقال له رجل كذبت . فنزل مغضبا . فدخل منزله ثم خرج عليهم تقطر لحيته ماء . فصعد المنبر فقال أيها الناس إن الغضب من الشيطان وأن الشيطان من النار . فإذا غضب أحدكم فليطفئه بالماء[2] .

وقد بدا معاوية ـ فى هذا المثال ـ على جانب كبير من المرونة وضبط النفس . كما بدا الشخص الذى رماه بالكذب متثبتاً من قوله . ولو استطاع معاوية أن يثبت عكس ذلك لناقشه على الأقل أو لأمر به فنال ما يستحقه من عقاب لتطاوله على الخليفة .

وقد تجلت أيضاً براعة معاوية فى الإلتواء ، وبرز دهاؤه (فى التملص من المأزق الحرجة) فى إشغاله السامعين بالتحدث عن وسائل إزالة الغضب بدلا من التحدث عن أصل المشكلة التى كان يتحدث عنها فرمى بالكذب من أجلها .

ومن أطرف ما عثرنا عليه أثناء البحث فى هذا الجانب من جوانب الموضوع

---

١ ـ ابن أبى الحديد ، « شرح نهج البلاغة » ٤/ ١٣٣ .
٢ ـ ابن قتيبة ، « عيون الأخبار » ١/ ٢٩٠ .

Books.Rafed.net

أن يزيد ابن شجرة الرهاوى ذكر أنه بينما كان سائراً مع معاوية ومعاوية يحدثه « إذ صك وجه يزيد حجر عاثر فادماه ـ وهو منصت .

فقال له معاوية : لله أنت !! ما نزل بك ؟ قال وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال هذا دم وجهك يسيل .

قال : إن حديث أمير المؤمنين ألهانى حتى غمر فكرى . . فما شعرت بشىء حتى نبهنى أمير المؤمنين . فقال له معاوية . لقد ظلمك من جعلك فى ألف من العطاء وأخرجك من عطاء أبناء المهاجرين وكماة أهل صفين .

فأمر له بخمسمائة ألف درهم . وزاده فى عطائه ألف درهم[1] .

ولا ندرى ما هو حق ابن شجرة بهذا العطاء من مال المسلمين .

هل صك الحجر وجهه أثناء الجهاد فى سبيل العقيدة الاسلامية ؟ أم أثناء النفاق للخليفة ؟

وأنكى من ذلك أن بن هند يعطى من بيت مال المسلمين عطاء خاصا لكماة صفين ـ الذين حاربوا عليا ـ واعتدوا على قدسية الإسلام .

ولسنا نعلم فيما إذا كان الذين حاربوا عليا ـ من أهل الشام ـ كماة أم لا . إن الذى نعلمه ـ بالتأكيد ـ أن معاوية وجنوده فى ليلة الهرير قد اندحروا أمام جيوش الإمام كما تندحر جيوش الظلام أمام أشعة الشمس فلجأ معاوية إلى الدس والمراوغة ـ كما هو معروف فى التحكيم ـ وفى معرض التحدث عن جنس ما ذكرنا يقول الجهشيارى[2] .

---

١ ـ الجاحظ : « التاج فى أخلاق الملوك » ص ٥٥ — ٥٧ . وقد عبر أحدهم عن هذا النوع من العطاء بقوله :

سألناه الجزيل فما تلكا ... وأعطى فوق منيتنا وزادا
وأحسن ثم أحسن ثم عدنا ... وأحسن ثم عدت له فزادا
مراراً لا أعود إليه إلا ... تبسم ضاحكا وثنى الوسادا

٢ ـ الوزراء والكتاب ص ٥٩ .

Books.Rafed.net

لما توفى يزيد بن عبد الملك وأفضى الخلافة إلى هشام أتاه الخبر وهو فى ضيعة له مع جماعة. فلما قرأ الكتاب سجد. وسجد من كان معه من أصحابه خلا سعيد فإنه لم يسجد

فقال له هشام : لم لم تسجد ؟ فقال علام أسجد ؟ أعلى إن كنت معى فصرت فى السماء ؟ قال له فإن طيرناك معنا ؟

قال : الآن طاب السجود .

وشبيه بهذا قول مالك بن هبيره لحصين بن نمير ـ على أثر تنازل معاوية بن يزيد عن « الخلافة » ـ هلم فلنبايع لهذا الغلام ـ أى خالد بن يزيد ـ « الذى نحن ولدنا أباه وهو ابن أختنا فقد عرفت منزلتنا من أبيه فإنه كان يحملنا على رقاب العرب[1].

«يتضح من هذين المثالين أن مقياس الخلافة قد أصبح عند الناس فى العهد الأموى خاصة ـ هو المصلحة الشخصية بأضيق معانيها . وقد حصل ذلك ـ على مايبدو ـ كنتيجة من نتائج الحكم الأموى نفسه . ومن ثم صار سبباً من أسباب تثبيته . فهو نتيجة وسبب فى آن واحد .

وقد عبر عن ذلك كله خالد بن عبد الله بن أسيد فى جوابه لعبد الملك بن مروان حين عاتبه عبد الملك على قلة المال الذى أرسله إليه حينما كان والياً على العراق :

استعملتنى على العراق وأهله رجلان : سامع مطيع مناصح وعدو مبغض مكاشح فأما السامع المطيع المناصح فجزيناه ليزداد ودا إلى وده .

وأما المبغض المكاشح فأنا دارينا ضغنه وسللنا حقده . فكثرنا لك المودة فى صدور رعيتك » .

روى ابن الكلبى عن أبيه عبد الرحمن بن السائب أن الحجاج قال يوماً « لعبد الله بن هانىء » ـ وهو رجل من بنى أود وكان شريفاً فى قومه وقد شهد مع الحجاج مشاهده كلها وكان من أنصاره وشيعته ـ والله ما كافأتك بعد .

---

١ ـ الطبرى : « تاريخ الأمم والملوك » ٧/٣٨ .

Books.Rafed.net

ثم أرسل الحجاج إلى أسماء بن خارجـــة ـ سيد بنى فزارة ـ أن زوج عبد الله بن هانىء من ابنتك . فقال لا والله ولا كرامة . فدعا له بالسياط . فلمارأى الشر قال نعم أزوجه .

ثم بعث الحجاج إلى سعيد بن قيس الهمدانى ـ رئيس اليمانية ـ زوج ابنتك من عبد الله بن هانىء من أود .

فقال : ومن أود ؟ لا والله لا أزوجه ولا كرامة . فقال على بالسيف . فقال دعنى حتى أشاور أهلى . فشاورهم .

فقالوا : زوجه ولا تعرض نفسك لهذا الفاسق فزوجه .

فقال الحجاج لعبد الله : قد زوجتك بنت سيد فزارة وبنت سيد همدان وعظيم كهلان . وما أود هناك ! ! فقال لا تقل ـ أصلح الله الأمير ـ ذلك فإن لنا مناقب ليست لأحد من العرب . قال وما هى ؟ قال ماسب أمير المؤمنين عبد الله بن مروان ـ فى نادينا قط .

قال الحجاج : منقبة والله . قال وشهد معنا صفين مع أمير المؤمنين ـ معاوية ابن أبى سفيان ـ سبعون رجلا وما شهد منا ـ مع أبى تراب ـ إلا رجل واحد ، وكان ـ والله ما علمته امرأ سوء .

قال الحجاج : منقبة والله . قال ومنا نسوة نذرن إن قتل الحسين بن على أن تنحر كل واحدة عشر قلائص . ففعلن .

قال الحجاج : منقبة والله . قال وما منا رجل عرض عليه شتم أبى تراب ولعنه إلا فعل وزاد ابنيه حسنا وحسينا وأمهما فاطمة .

قال الحجاج : منقبة والله . قال وما أحد من العرب له من الصباحة والملاحة ما له .

فضحك الحجاج وقال : أما هذه ـ يا أبا هانىء ـ فدعها (١)

---

١ ـ وكان عبد الله بشع المنظر مجدوراً قبيح الوجه شديد الحول راجع ابن أبى الحديد شرح نهج البلاغة ١/٣٥٧ الطبعة الأولى بمصر .

Books.Rafed.net

ذلك ما يتصل بالمصانعة والمداراة والملاينة التى اتبعها الأمويون لتثبيت حكمهم فى بلاد الاسلام .

أما سياسة الشدة ـ وهى الجانب السلبى لما ذكرناه ـ فتظهر ـ بأبشع صورها ـ فى قتل حجر بن عدى وأصحابه، والحسين بن على وأصحابه، وفى قتل عمرو بن سعيد الأشدق ومصعب ابن الزبير ، وعبد الله بن الزبير، وفى رمى الكعبة واستباحة المدينة ثلاثة أيام كما سنرى فى مكان آخر من هذه الدراسة .

ـ ٢ ـ

الكذب على الله وعلى رسوله وعلى المسلمين

فقد تبنى الأمويون ـ عن طريق المصانعة والمداراة بالمال ـ طائفة من المسلمين لوثوا ضمائرهم فدسوا ـ على رسول الله ـ حديثا مكذوبا .

ولفقوا على المسلمين آنذاك طائفة من القصص والحكايات .

وأوجدوا مخارج شرعية كثيرة لموبقات الأمويين .

وقد نهى الإسلام عن الكذب فى شتى صوره وبخاصة الكذب على الله ورسوله

وفى القرآن طائفة كبيرة من الآيات كلها تبدأ بهذا الشكل :

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا » الخ (١) .

وباستطاعة الباحث المدقق أن يهتدى ـ دون مشقة كبيرة إلى معرفة «الحديث» المفتعل المكذوب ، وتحديد زمانه و تعيين الغاية من وضعه . ويصدق الشىء نفسه على الروايات المكذوبة والأخبار الملفقة

والهدف العام من تلك « الأحاديث » والروايات المكذوبة والأخبار الملفقة : خدمة « العرش » الأموى وتثبيت قواعد بنائه .

---

١ ـ راجع: سورة آل عمران، والأنعام ، والأعراف، وهود ، والنحل ، والكهف، والعنكبوت ، والسجدة ، والزمر .

Books.Rafed.net

أما الهدف الخاص فهو ترجيح كفة بعض الأمويين على بعض آخر فى حالة النزاع بين أكثر من جهة أموية واحدة تطمح إلى تسنم مركز قيادة المسلمين .

وكان الأمويون أنفسهم يفعلون ذلك أحياناً، وكان أتباعهم يفعلونه أحياناً ثانية وكان المأجورون من المشتغلين بأمور الدين يدسونه على الدين أحياناً ثالثة .

وإلى القارىء طائفة من ذلك سقناها على سبيل التمثيل لا الحصر .

ولنبدأ بالأحاديث المانعة أولا :

ذكر البخارى بأسانيده المختلفة عن عبد الله بن عمر ، قال قال رسول الله إنكم سترون بعدى إثرة وأموراً تنكرونها . قالوا فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال أدوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم » (١) .

وروى البخارى كذلك بأسانيده المختلفة عن عبد الله بن عباس ، قال قال رسول الله من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات إلا ميتة جاهلية(٢) .

وذكر البخارى(٣) أيضاً باسانيده المختلفة عن علقمة بن وائل الحضرمى عن أبيه ، قال : سأل سلمة بن زيد الجعفى رسول الله فقال يانبى الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألوننا حقهم ويمنعونا حقنا ،! فما ترى ؟ فاعرض عنه . ثم سأله . فاعرض عنه . ثم سأله فى الثانية أو الثالثة ـ فجذبه الأشعث بن قيس ـ وقال رسول الله : اسمعوا واطيعوا فإن عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم . وروى البخارى أيضاً باسناده عن عجرفة قال ، قال سمعت رسول الله يقول أنه ستكون هنات وهنات. فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة ـ وهى جمع ـ فاضربوه بالسيف كائنا ما كان(٤) »

---

١ ـ صحيح البخارى ٨/٨٧ .
٢ ـ المصدر نفسه ٨/٨٧ .
٣ ـ المصدر نفسه ٢/١١٩ .
٤ ـ صحيح البخارى ٢/١٢١ .

Books.Rafed.net

وروى البخارى كذلك باسناده عن أبى سعيد الخدرى ، قال : قال رسول الله إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما[١]».

وما يجرى هذا المجرى من « الاحاديث » لا يكاد يقع تحت حصر لكثرته . وجميعه يدعو المسلمين إلى الخضوع لأوامر الحكومة القائمة منددا بمثيرى الفتن والمشتركين فيها . ويتلخص جميعه فيما يلى[٢] « ستكون فتن ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشى ، والماشى خير من الساعى ، ومن وجد ملجأ أو معاذاً فليعذ به . »

يتضح من « الاحاديث » الآنفة الذكر أن الرسول يدعو أمته ـ والمؤمنين برسالته ـ إلى الانصياع إلى حكامهم حتى وإن خرج أولئك الحكام فى تصرفاتهم على مبادىء الإسلام ـ وذلك خوفاً من التفرقة والقطيعة . فكان الرسول فى تلك « الاحاديث » يدعو أمته إلى هدم رسالته للمحافظة على وحدة الصفوف على حساب الدين ـ وهو أمر عل جانب كبير من الخطورة والمجازفة .

وإذا كانت وحدة الصفوف هى الهدف الأسمى للنبى ـ دون اهتمام بالمبادىء التى تحدث تلك الوحدة وفقاً لمستلزماتها ـ فلماذا هدم الرسول وحدة صفوف العرب فى جاهليتهم وحطم أصنامهم ودك معتقداتهم الوثنية وهى أعز شىء لديهم ؟!

ولو كانت تلك « الاحاديث » سليمة من الناحية التاريخية فلماذا لم يستشهد بها أحد من الصحابة عند وفاة الرسول واختلاف الاراء حول تراثه وخلافته .

ولماذا لم يستشهد بها أحد من المسلمين حين ظهور الخلاف بين بعض المسلمين حول الزكاة فى عهد أبى بكر وظهور ما يطلق عليهم إسم « المرتدين »؟ .

---

١ ـ صحيح البخارى ٢/١٢٢ . ولسنا نعلم من هو الآخر منهما ؟ أهو الذى تدور عليه الدوائر ؟ وقديماً قيل :

الناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهى ولأم المخطئ الهبل

٢ ـ روى ذلك أحمد بن حنبل فى مسنده ٢/٢٨٢ بإسناده عن أبى هريرة . قال : قال رسول الله :

Books.Rafed.net

ولماذا لم يستشهد بها المسلمون أثناء الفتنة الكبرى التى أدت إلى مصرع ثالث الخلفاء الراشدين ؟!

ولماذا لم تتذكرها السيدة عائشه وطلحة والزبير ـ مع مكانتهم من رسول الله فيحجمون عن الخروج على الإمام وشق عصا المسلمين ؟

ولماذا لم يستشهد بها أبو موسى الأشعرى حينما كان يخذل أهل الكوفة عن نصرة الإمام ؟ . يضاف إلى ذلك أن تلك « الأحاديث » تتناقض هى وكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . كما أنها لا تنسجم مع الذوق الإسلامى وسيرة الرسول .

جاء فى سورة البقرة « وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم .

وفى سورة المائدة « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم . . »

وفى سورة المجادلة « لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم وعشيرتهم .

وفى سورة الممتحنة « يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم .

أما الأحاديث التى تفند « الأحاديث » الآنفة الذكر فإلى القارىء طرفاً منها : ذكر مسلم ابن الحجاج[1] عن ابن مسعود بأسانيده المختلفة « أن رسول الله قال : ما من نبي بعثه الله فى أمته قبلى إلا وكان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدرون بأمره . ثم أنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون ويفعلون مالا يؤمرون . فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ؛ ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن »

وجاء عن أبى سعيد الخدرى أنه قال : « سمعت رسول الله يقول : من رأى

---

١ ـ صحيح مسلم ١/٣٨ ـ ٣٩ .

Books.Rafed.net

منهم[١] منكراً فليغيره بيده . فإن لم يستطع فبلسانه . فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان[٢] » .

أما القصص والأخبار المكذوبة فإلى القارىء طائفة منها تاركين تلمس جوانب الوضع فيها إلى القارىء نفسه . ولنبدأ بقصة نفى المهر والزنى عن هند أم معاوية[٣] .

تحدث عتبة مع إبنته هند فى أحد الأيام حول رمى الناس إياها بالفجور على أثر اتهام زوجها الفاكه إياها بذلك وطلاقه إياها الأمر الذى أدى إلى زواجها بأبى سفيان ، وأخبر عتبة إبنته قائلا إنك إذا كنت زانية فأننى سأدس إلى الفاكه من يقتله فينقطع عنك القالة . فحلفت أنها لاتعرف لنفسها جرما وإنه لكاذب عليها .

فقال عتبة للفاكه إنك قد رميت إبنتى بأمر عظيم فهل لك أن تحاكمنى إلى بعض الكهنة ؟ فخرج الفاكه فى جماعة من بنى مخزوم ، وخرج عتبة فى جماعة من بنى عبد مناف وأخرج معه هند ونسوة معها . فلما شارفوا بلاد الكاهن تغيرت حال هند وتنكر أمرها واختطف لونها . فرأى ذلك أبوها .

فقال لها أبوها : إنى أرى ما بك . وما ذاك إلا لمكروه عندك . فهلا كان هذا قبل أن يشتهر عند الناس مسيرنا ؟

فقالت : يا أبتى إن الذى رأيت منى ليس لمكروه عندى ولكنى أعلم أنكم تأتون بشراً يخطىء ويصيب ولا آمن أن يسمى ميسما يكون على عاراً عند نساء مكة .

---

١ ـ كذا فى الأصل المطبوع والصواب : من رأى منكم « الناشر » .

٢ ـ ابراهيم المالكى ، الفتوحات الوهبية ص ٢٦١ .

٣ ـ سوف نذكر قصة مهر السيدة هند فى مكان آخر من هذه الدراسة كما رواها كبار المؤرخين . المؤلف .

Books.Rafed.net

قال لها فانى سأمتحنه قبل المسألة بأمر .

ثم صفر بفرس له فأدلى ثم أخذ حبة بر فأدخلها فى إحليله وشده بسير وتركه . حتى إذا وردوا على الكاهن أكرمهم ونحر لهم. فقال عتبة : إنا جئناك لأمر وقد خبأت لك خبيئا اختبرك به . فانظر ما هو ؟

فقال : ثمرة فى كمرة .

فقال : أبين من هذا ؟ .

قال : حبة بر فى إحليل مهر .

قال صدقت . أنظر الآن فى أمر هذه النسوة . فجعل يدنو من واحدة واحدة منهن ويقول انهضى حتى صار إلى هند فضرب على كتفها وقال : أنهضى غير رقحاء ولا زانية ولتلدن ملكا يقال له معاوية » . ولا ندرى كيف اهتدى ذلك الكاهن إلى حبة البر فى إحليل المهر ! ! وإلى هنـــد ـــ دون سائر النساء ـــ فأثبت « طهرها » وبشرها بغلام إسمه معاوية ؟

إن كل ما نستطيع أن نقوله عن هذا « الكاهن » إنه خرافى من نسيج خيال المدافعين عن هند والمعتذرين عن عهرها الذى يذكره مؤرخو المسلمين . وما يصدق على القصة الآنفة الذكر يصدق على زميلتها التى تروى « إسلام » معاوية قبل عام الفتح .

ذكر الواقدى على ما يروى ابن حجر العسقلانى[1] . « أن معاوية أسلم بعد الحديبية وكتم إسلامه حتى أظهره عام الفتح » .

وما ينطبق على ما ذكرناه من الأخبار ينطبق على أخبار أخرى مشابهة وفى مقدمتها الاستدلال بسيماء معاوية ـــ وهو فى طفولته ـــ على سيادته قومه بنظر أعرابى، وعلى سيادته العرب قاطبة بنظر أمه هند . قال ابن حجر العسقلانى[2].

---

١ ـ الاصابة فى تمييز الصحابة ٣ / ٤١٢ ـ ٤١٣ .

٢ ـ المصدر نفسه ٣ / ٤١٢ ـ ٤١٣ .

Books.Rafed.net

« أخرج البغوى من طريق محمد بن سلام الجمحى عن إبان بن عثمان بن عفان قال كان معاوية بمنى -- وهو غلام مع أمه ــ إذ عثر . فقالت قم لا رفعك الله . فقال لها إعرابى لم تقولين هذا ؟ والله إنى لأراه سيسود قومه . فقالت لا رفعة الله إن لم يسد إلا قومه[1] » .

ومن أكذب ما قرأناه ــ فى معرض الإطراء على معاوية ــ ما ذكر عن أبى هريرة إنه قال سمعت رسول الله يقول « إن الله إئتمن على وحيه ثلاثة : أنا وجبرئيل ومعاوية » .

وذكر الخطيب البغدادى[2] قولا مأثوراً لخواه أن معاوية ابن أبى سفيان ستر أصحاب رسول الله فاذا كشف الرجل الستر اجترىء على ما وراءه » .

وذكر أيضاً أنه سمع رجلا يسأل المعـــافى بن عمران رأيه فى المفاضلة بين عمر بن عبد العزيز ، ومعاوية بن أبى سفيان . فغضب المعافى من ذلك غضباً شديداً وقال : لا يقاس بأصحاب رسول الله أحد . معاوية صاحبه ، وصهره ، وكاتبه ، وأمينه على وحى الله ، وقد قال رسول الله . دعوا لى أصحابى وأصهارى فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين[3] » .

---

١ ــ ومن الطريف أن نذكر هنا أن تلفيق الأحاديث والقصص لخدمة الأمويين لم يقتصر على دعاتهم فقط بل تعداه إلى الأمويين أنفسهم . فقد لفق شيخهم معاوية ، كثيراً من القصص أثناء نزاعه مع على كما سنرى وإلى القارىء نموذجا من أكاذيبه الأخرى ذكر الجهشيارى فى كتاب الوزراء والكتاب ص ٣٤ « أن معاوية مر بسعد ــ فى طريق مكة بعد صلاة الصبح ــ ومعه أهل الشام فوقف على سعد فسلم عليه . فلم يرد عليه السلام . فقال معاوية لأهل الشام أتدرون من هذا ؟ هذا سعد صاحب رسول الله لا يتكلم حتى تطلع الشمس فبلغ سعدا ذلك فقال ما كان ذلك منى والله على ما قال . ولكن كرهت أن أكذبه » .

١ ــ تاريخ بغداد ١ / ٢٠٩ ، ٢١٠ .

٢ ــ يلوح أن دعاة معاوية قد نسوا أن هذا « الحديث » على معاوية لا له . فمعاوية هو الذى بدأ بلعن الإمام على بن أبى طالب دون مبرر شرعى وخلافا للقرآن وسيرة النبى والأخلاق الإنسانية الرفيعة . فكأن الرسول لم يلعن إلا معاوية فى هذا « الحديث » حين قال « دعوا لى أصحابى واصهارى فمن سبهم فعليه لعنة الله » !! ويغلب على ظنى أن هذا « الحديث » قد وضع بعد أن بلغ معاوية غايته من سب الإمام وأصبحت ظروفه السياسة بحاجة إلى أسلوب آخر غير السب .

Books.Rafed.net

وعندما أراد معاوية أن يمهد الأمر ـــ من بعده ـــ لإبنه يزيد لفق دعاة السوء جملة قضايا لتغطية فسقه وفجوره . نذكر منها ما يلى :

ذكر محمد بن عبيد الله بن عمرو العتبى ، على ما يروى ابن الإثير[1]. « أن معاوية ـــ ومعه إمرأته إبنة قرظة ـــ نظر إلى يزيد وأمه ترجله . فلما فرغت منه قبلته بين عينيه . فقالت إبنة قرظة لعن الله ساقى أمك .

فقال معاوية : أما والله لمـــا تفرجت عنه وركاها خير مما تفرجت عنه وركاك .

وكان لمعاوية من إبنة قرظة ـــ عبد الله وكان أحمق . فقالت : لا والله ولكنك تؤثر هذا عليه . فقال لها سوف أبين لك ذلك . فأمر فدعى له عبد الله . فلما حضر .

قال أى بنى : إنى أردت أن أعطيك ما أنت أهله ، ولست بسائل شيئاً إلا أجبتك إليه . فقال : حاجتى أن تشترى لى كلباً فارها وحماراً .

فقال أى بنى : أنت حمار وأشترى لك حماراً ! ! أخرج . ثم أحضر يزيد وقال له مثل قوله لأخيه . فخر ساجداً . ثم قال ـــ حين رفع رأسه :

الحمد لله الذى بلغ أمير المؤمنين هذه المدة وأراه هـذا الرأى . حاجتى أن تعتقنى من النار لأن من ولى أمر الأمة ثلاثة أيام اعتقه الله من النار .

فتعقد لى ولاية العهد بعدك ، وتولينى العام الصائفة .

وتأذن لى فى الحج إذا رجعت ، وتولينى الموسم .

وتزيد لأهل الشام كل رجل عشرة دنانير .

فقال معاوية : قد فعلت . وقبل وجهه وقال لامرأته ـــ بنت قرظة ـــ كيف رأيت ؟ » .

---

١ ـ الكامل فى التاريخ ٣ / ٣١٧ .

Books.Rafed.net

والطريف فى القصة الآنفة الذكر ــ عدا تلفيق القول بأن من ولى أمر هذه الأمة ثلاثة أيام اعتقه الله من النار .

أن محتويات تلك القصة قد أسندت إلى يزيد ابن معاوية ــ قبيل وفاة أبيه ــ وذلك لتحبيبه لأهل الشام تمهيداً لتوليته العرش الأموى بعد وفاة أبيه .

ويؤيد ما ذهبنا إليه أن يزيد طلب من أبيه زيادة عطاء أهل الشام ــ دون غيرهم من المسلمين ، بالاضافة إلى ماكانوا يتمتعون به أثناء حياة أبيه وبخاصة فى فترة النزاع مع ابن أبى طالب ليحصل على مؤازرتهم فى ترشيحه للخلافة .

ومما يلفت النظر فى هذه القصة أن ما ذكر فى آخرها يهدم ما ذكر فى أولها . فقد نسى واضع القصة أن « يزيد » الذى خر ساجداً بين يدى أبيه وطلب ولاية العهد ليعتقه الله ـ حسب زعمه ـ من النار إلخ ... هو :

يزيد بن معاوية الذى كانت أمه ترجله ــ وعمره ــ فى هذه الحال لايتجاوز السنتين على أحسن الفروض . أى أن واضع القصة نسى أن يزيد بن معاوية هو غير عيسى بن مريم الذى كلم الناس فى المهد صبياً . ففى القصة إذن يزيدان :

يزيد بن معاوية الذى ترجله أمه ــ والذى عرفه المسلمون بالفسق ، والفجور بعد ذلك و « يزيد » آخر لفق وجوده دعاة السوء ــ قبيل وفاة أبيه أثناء التمهيد لتوليته أمور المسلمين .

ومن الجدير بالذكر أن « يزيد » الوهمى يظهر لنا أحياناً بعد وفاة أبيه كلما آنس أنصار الأمويين فى ظهوره خدمة للعرش الأموى .

وليزيد الآنف الذكر أخبار مسطورة فى بعض كتب الأدب والتاريخ ، وله سيرة تناقض سيرة يزيد بن معاوية الذى يعرفه المسلمون . وليزيد الوهمى كذلك خطب تناقض ما هو مأثور عنه .

Books.Rafed.net

من ذلك مثلا أن : « يزيد » الوهمى خطب مرة ـــ على ما يذكر ابن عبد ربه (العقد الفريد : ٢ /٢٦٥) .

فقال : الحمد لله . أحمده واستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . من يهد الله فلا مضل له . ومن يضل فلاهادى له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، اصطفاه لوحيه واختاره لرسالته بكتاب فصله وفضله ، وأعزه وأكرمه ونصره وحفظه . ضرب فيه الأمثال وحلل فيه الحلال وحرم فيه الحرام ، وشرع فيه الدين إعذاراً أو إنذاراً لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسول ، ويكون بلاغاً لقوم عابدين . أوصيكم عباد الله بتقوى الله العظيم الذى ابتدأ الأمور بعلمه وإليه معادها وانقطاع مدتها وتصرم دارها .

ثم إنى أحذركم الدنيا فأنها حلوة خفرة حفت بالشهوات ... »

يا للعجب !! يزيد بن معاوية ـــ لا يزيد الوهمى ـــ يحث الناس على الورع ويزهدهم فى الدنيا !! إن الذى لا يرقى إليه الشك بنظرنا هو أن الانسان لو عرض ـــ الكلمة المأثورة المارة الذكر مجردة عن توقيع صاحبها ـــ على المسلمين فى كل مكان لما ترددوا فى نسبتها للإمام على أو الذين يسيرون على نهجه من المسلمين .

ولعل اسم يزيد آخر اسم يرد على الذهن فى هذا المضمار .

ومن الأخبار الموضوعة ـ فى العهد الأموى ، حين اختلف الأمويين وانصارهم على « الخليفة » بعد اعتزال معاوية بن يزيد بن معاوية الملك ، رؤيا الحصين بن نمير السكونى ، وما اتصل بها من حوادث .

قال الحصين ـ على ما يذكر الطبرى [1] : إنى رأيت فى المنام قنديلا معلقاً فى السماء ، وإن من يمد عنقه إلى الخلافة تناوله . فلم ينله أحد . وتناوله مروان بن الحكم فناله . والله لنستخلفنه ... فلما اجتمع رأيهم للبيعة لمروان بن الحكم قام روح بن زنباع الجذامى وقال :

---

١ ـ تاريخ الأمم والملوك ٧ / ٣٨ .

Books.Rafed.net

أيها الناس تذكرون عبد الله بن عمر بن الخطاب وهو رجل ضعيف وليس بصاحب أمة محمد الضعيف .

وأما ما يذكر الناس عن عبد الله بن الزبير فانه منافق شق عصا المسلمين . وليس بصاحب محمد المنافق .

وأما مروان فو الله ما كان فى الاسلام صدع قط إلا وكان مروان ممن يشعب ذلك الصدع .. وهو الذى قاتل على بن أبى طالب يوم الجمل » .

إن هذه القصة تحمل فى ثناياها جملة أمور تستوقف الباحثين . فقد لفق موضوع القنديل المعلق فى السماء للتعبير عن أن أمر الخلافة منوط بالله وأن خليفة المسلمين هو نور الله فى الأرض ايربط هذا الأمر ـ بعد ذلك ـ بمروان بن الحكم إيهاما للبسطاء والسذج من المسلمين .

وقد اتهم منافسو مروان بتهم شتى من شأنها ـ بنظر واضع القصة ـ أن تبعدهم عن تسنم خلافة المسلمين . فعبد الله بن عمر ضعيف ـ وليس بصاحب أمة محمد الضعيف ـ فى حين أن عثمان بن عفان كان ، بنظر الامويين أنفسهم[1] ، ضعيفاً .

ووصف واضع القصة عبد الله بن الزبير بالنفاق وأنه شق عصا المسلمين ، وليس بصاحب أمة محمد المنافق ـ فى حين أن الزبير (أبا عبد الله) وطلحة ومعاوية وآخرين كثيرين قد شقوا عصا المسلمين بخروجهم على الامام على بن أبى طالب .

أما مروان بن الحكم فلم يكن « برأى واضع القصة » فى الاسلام صدع قط

---

١ ـ خطب عبد الملك بن مروان يوما فقال : « لست بالخليفة المستضعف ـ يعنى عثمان ـ ولا بالخليفة المداهن ـ يعنى معاوية ـ ولا بالخليفة المأفون ـ يعنى يزيد » ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٤ / ٤١ .

Books.Rafed.net

إلا كان مروان ممن يشعبه . فى حين أنه سيرته ـــ وسيرة أبيه التى ذكرنا طرفا منها فى فصل سابق .

قد دلت على نقيض ذلك . ومواقفه من الرسول معروفة ، وسيرته فى تأليب الناس على عثمان بن عفان أشهر من أن تذكر .

ولا ندرى كيف جاز لواضع القصة أن يزعم مع اعترافه بحرب مروان لعلى بن أبى طالب ـــ وشقه عصا المسلمين ـــ بأن مروان ممن يشعب الصدع فى الاسلام عند حدوثه !!

ويتعلق بما ذكرناه (من القصص الملفقة لخدمة الأمويين) ما رواه ابن الإثير[1] عن أبى زياد أنه قال : كان فقهاء المدينة أربعة : سعيد بن المسيب وعروة ابن الزبير وقبيصة بن ذئيب وعبد الملك بن مروان .

وقال الشعبى : ما ذاكرت أحداً إلا وجدت لى الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان فأنى ماذاكرته حديثاً إلا زادنى فيه ولا شعراً إلا زادنى فيه .

ويلوح للباحث أن هذا النوع من الكذب كان يظهر أحياناً على لسان الحكام الأمويين . فكان عبد الملك بن مروان مثلا يقول ـ عندما حضرته الوفاة عام ٨٦هـ.

(أخاف الموت فى شهر رمضان . فيه ولدت ، وفيه فطمت ، وفيه جمعت القرآن، وفيه بايع لى الناس) .

ولا ندرى : كيف استطاع عبد الملك أن يعرف أنه فطم فى شهر رمضان ؟! وعمره آنذاك لا يتجاوز السنتين .. على أنه ليس من العسير على الباحث ، مع هذا أن يتلمس دوافع الوضع والكذب فى أمثال تلك الأمور ؟

---

١ ـ الكامل فى التاريخ ٣ / ١٠٤ أما أرجوزة ابن عبد ربه فى وصف سيرة عبد الرحمن الناصر فأشهر من أن تذكر . فقد أغفل اسم على بن أبى طالب من سلسلة الخلفاء الراشدين واعتبر معاوية رابعهم ثم وصل الدولة الأمويين ـ فى الشام والأندلس ـ ببعضهما كما هو معروف .

Books.Rafed.net

فقد حدثت ولادة حفيد الحكم بن أبى العاص ـــ طريد رسول الله ـــ فى شهر رمضان كما حصل ـــ فى ذلك الشهر ـــ فطامه وجمعه القرآن ، ومبايعة الناس إياه بالخلافة لكى ترتفع قيمته بنظر المسلمين لما لشهر رمضان من حرمة فى نفوسهم .

أما قضية جمع عبد الملك القرآن فنترك التعليق عليها للقارىء لأننا نعلم أن جمع القرآن قد تم فى عهد ابن عفان بعد أن أحرقت جميع الصحائف الأخرى .

فهناك إذن (عبد ملك) آخر غير عبد الملك بن مروان . (عبد الملك) الذى لم يكتف بجمع القرآن فقط بل زاد على ذلك أنه جمعه فى رمضان ـــ وربما كان صائماً ـــ على عادة الأمويين .. !

ولم يقتصر الكذب الأموى على الأمويين أنفسهم بل تعداهم إلى إخوانهم فى الصراع ضد مبادىء الإسلام . فقد انتشرت قصص كثيرة عن عمرو بن العاص ، وزياد بن أبيه ، والحجاج بن يوسف ومن هم على شاكلتهم من ولاة السوء ، لرفع شأنهم بنظر البسطاء من الناس . قال ابن حجر العسقلانى (١) :

« ذكر الزبير بن بكار أن رجلا قال لعمرو بن العاص ما أبطاك عن الاسلام وأنت أنت فى عقلك .. قال : إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم . . . فلما بعث رسول الله فأنكروا عليه لذنبهم . فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا وتدبرنا فاذا حق بين . فوقع فى قلبى الاسلام . . .

وقال ابراهيم بن مهاجر عن الشعبى عن قبيصة بن جابر : صحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلا أبين قرآنا ولا أكرم خلقاً ولا أشبه سريرة بعلانية منه .

وفى صحيح مسلم من رواية عبدالرحمن بن شماسة قال : لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة بكى . فقال له عبد الله بن عمرو ـــ ابنه ـــ ما يبكيك ؟ فذكر أنه كان شديد الحياء من رسول الله لا يرفع طرفه إليه . . .

---

١ ـ الإصابة فى تمييز الصحابة : ٣ / ٢ ـ ٣ .

Books.Rafed.net

عمرو بن العاص بن وائل السهمى المستهزىء برسول الله الذى نزل فيه أن شانئك هو الأبتر) .

عمرو الذى حارب رسول الله يوم أحد وقاوم أصحابه عند النجاشى .

عمرو بن العاص الذى غدر بأبى موسى أثناء التحكيم ، كان شديد الحياء من رسول الله ، وأبين المسلمين قرآنا ، وسريرته لا تختلف عن علانيته !!! إنه ، عمرو الوهمى ، عمرو آخر دون شك (١) .

ذلك ما يتصل بعمرو الوهمى .

أما ، الحجاج ، الوهمى فيظهر فى الخطب الموضوعة التالية : « اردعوا هذه الأنفس فإنها أسأل شىء إذا أعطيت وأعطى شىء إذا سئلت . فرحم الله أمرأ جعل لنفسه خطاما وزماما فقادها بخطامها إلى طاعة الله ، وعطفها بزمامها عن معصية الله فانى رأيت الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله (٢) .

حقاً إنه لحجاج غريب !! إنه أقرب إلى روح الحسن البصرى ومن هم على على شاكلته من الزهاد منه الى الحجاج بن يوسف والجلاد السفاك . استمع إلى هذا « الحجاج » يقول :

« إن امرءاً أتت عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربه ويستغفر ربه من ذنبه ويفكر فى ميعاده لجدير أن يطول حزنه ويتضاعف أسفه . إن الله كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء (٣).

---

١ ــ أما كذب عمرو بن العاص نفسه فيتضح بأوضح أشكاله فى المثال التالى : ذكر الواقدى فى مغازى رسول الله ص ١٩ أن عاتكة بنت عبد المطلب رأت فى المنام « أن راكبا أقبل على بعير حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته يا آل غدر انفروا إلى مصارعكم ... فاجتمع الناس . . ثم دخل المسجد والناس يتبعونه فصرخ بمثلها ثلاثا . ثم مثل به بعيره على رأس أبى قبيس . ثم صرخ بمثلها ثلاثا . ثم أخذ صخرة من أبى قبيس فأرسلها فأقبلت تهدى حتى إذا كانت بأسفل الجبل انفلقت فما بقى بيت من بيوت مكة ولادار من دور مكة إلا دخلته منها فلقة . فكان عمرو بن العاص يقول لقد رأيت فى دارنا فلقة من الصخرة التى انفلقت من أبى قبيس . »

٢ ــ ابن أبى الحديد . شرح نهج البلاغة ١/١٥٠ .

٣ ــ المصدر نفسه المجلد الأول ص ١٥٠ .

Books.Rafed.net

وقد نقلت من أمالى أبى أحمد العسكرى « خطب » كثيرة لصاحبنا « الحجاج » هذا نموذج منها :

أيها الناس قد أصبحتم فى أجل منقوص وعمل محفوظ . رب دائب مطيع، وساع لغيره .

خذوا من أنفسكم لأنفسكم ومن غناكم لفقركم ، ومما فى أيديكم لما بين أيديكم. الموت فى أعناقكم والنار بين أيديكم والجنة أمامكم . فكأن ما قد مضى من الدنيا لم يكن ، وكأن الأموات لم يكونوا .

وكل ما ترونه فهو ذاهب . هذه شمس عاد وثمود وقرون كثيرة بين ذلك .

هذه الشمس التى طلعت على التبابعة والأكاسرة وخزائنهم السائرة بين أيديهم وقصورهم المشيدة . ثم طلعت الشمس على قبورهم .

اين الملوك الأولون ؟ اين الجبابرة المتكبرون؟ المحاسب الله والصراط منصوب وجهنم تزفر وتتوقد، وأهل الجنة ينعمون فى روضة يحبرون .

جعلنا الله وإياكم من الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعميانا (١)

ومن الغريب أن ينتقل الكذب من الأحياء إلى الأموات . وأطرف ما عثرنا عليه فى هذا الباب ما رواه ابن عبد ربه(٢) عن صديقنا « الحجاج الآنف الذكر حين قال :

وسمع صياح الحجاج فى قبره فأتوا إلى يزيد بن أبى مسلم فأخبروه فركب فى أهل الشام فوقف على قبره فسمع فقال :

يرحمك الله يا أبا محمد !! فما تدع قراءة القرآن حياً وميتاً » .

---

١ ـ شرح نهج البلاغة ١/١٥٠ .

٢ ـ العقد الفريد : ٣/٢٥٧ .

Books.Rafed.net

وهناك نوع آخر من الكذب برع فيه الامويون . بدأه شيخهم معاوية وبلغ الذروة فى أحكامه ونسجه ولا يختلف هذا النوع من الكذب عن الكذب المنظم الذى تقوم به أجهزة الدعاية الحديثة فى كثير من الأقطار .

وليس من غير الممكن أن يتصدى الباحث ـ الذى له متسع من الوقت والوقع والجهد ـ لدراسة مقارنة بين أساليب الدعاية عند هتلر وزميله ابن أبى سفيان .

وبقدر ما يتعلق الأمر بأساليب الدعاية التى تبناها معاوية ـ وتقع ضمن هذا الباب التى كانت تهدف إلى تثبيت قواعد حكمه يمكننا أن نقدم للقارىء الامثلة التالية :

ذكر ابراهيم بن سعد بن هلال الثقفى صاحب « كتاب الغارات [1] أن معاوية كتب لقيس أن يدعو أهل مصر للمطالبة بدم عثمان وأن يبايعوا لمعاوية ثم قال :

« ولك سلطان العراقين إن ظفرنا ما بقيت ، ولمن أحببت من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لى سلطان . وسلنى عن غير هذا مما تحب ، فإنك لا تسألنى شيئاً إلا اتيته ، فأراد قيس أن يخادعه فكتب له بباطله . فأجابه معاوية :

أما بعد : فلم أرك تدنو فأعدك سلما ، ولم أرك تتباعد فأعدك حربا . أراك كحبل الجزور . وليس مثلى يصانع بالخداع ، ولا يخدع بالمكايد . . .

فلما قرأ سعد ذلك كتب له .

أما بعد : فالعجب من استسقاطك رأيى ، والطمع فى أن تسومنى ـ لا أبا لغيرك ـ الخروج من طاعة أولى الناس بالأمر واقولهم بالحق واهداهم سبيلا ، واقربهم من طاعة أولى الناس بالأمر وأقولهم بالحق اهداهم سبيلا ، وأقربهم من رسول الله وتأمرنى بالدخول فى طاعتك : طاعة أبعد الناس من هذا الأمر، وأقولهم بالزور، وأضلهم سبيلا ، وأبعدهم عن رسول الله . » فيئس معاوية منه . « فأظهر للناس أن قيسا قد بايعكم فادعوا له .

---

١ ـ حققه البحاثة السيد الأستاذ السيد جلال المحدث الأرموى هذا الكتاب ، وطبع فى طهران وأعيد طبعه فى الأوفست للمرة الثانية « العاشر » .

Books.Rafed.net

وقرأ لهم كتابه الذى لان فيه وقاربه .

واختلق كتابا نسبه إلى قيس فقرأه على أهل الشام للامير معاوية بن أبى سفيان من قيس بن سعد .

أما بعد : إن قتل عثمان كان حدثا فى الاسلام عظيما . وقد نظرت لنفسى ودينى فلم أر بوسعى مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مسلما محرما برا نقيا . فنستغفر الله لذنوبنا . إلا وأنى قد القيت لكم بالسلام واحببت إلى قتال قتلة إمام الهدى المظلوم. فاطلب منى ما أحببت من الاموال والرجال أعجله إليك » .

وقال ابراهيم بن[1] سعد بن هلال الثقفى صاحب « كتاب الغارات » « حدثنى عبد الله بن على بن محمد بن أبى سيف عن أصحابه أن عليا كتب إلى محمد بن أبى بكر كتابا ينظر فيه ويتأدب بأدبه ـ عندما كان واليا على مصر ـ . فلما ظهر عليه عمرو بن العاص وقتله أخذ كتبه فبعث بها إلى معاوية . . . فقال معاوية لخاصته أنا لانقول أن هذا من كتب على بن أبى طالب . ولكن نقول هذا من كتب أبى بكر التى كانت عند ابنه » .

وروى[2] إبراهيم بن سعد بن هلال الثقفى صاحب « كتاب الغارات » عن محمد ابن عبد الله بن عثمان عن على بن محمد بن أبى سيف المدائنى .

« أن معاوية أقبل يقول لاهل الشام :

أيها الناس أن عليا وجه الاشتر إلى مصر فادعوا الله أن يكفيكوه . . ودس إليه من يسقيه السم . « فكانوا يدعون عليه فى كل صلاة . وأقبل الذى سقاه السم إلى معاوية فأخبره بهلاك الاشتر . فقام معاويه فى الناس خطيبا فقال :

---

(١) بين معاوية ومحمد بن أبى بكر والى الامام على مصر . راجع « شرح نهج البلاغه » لابن أبى الحديد ٢/٢٨ .

(٢) بين معاوية والاشتر أثناء مسيره إلى مصر واليا من قبل الامام . راجع ابن أبى الحديد ، شرح نهج البلاغة ٢/٢٩ . الطبعة الأولى .

Books.Rafed.net

أما بعد فإنه كان لعلى يدان يمينان . فقطعت إحداهما يوم صفين - وهو عمار ابن ياسر - والاخرى اليوم - وهو مالك الاشتر ».

ثم أخبرهم بأن هلاك الاشتر نتج عن دعائهم ربهم عليه فى صلاتهم لانهم حزب الله « وحزب الله هم الغالبون » وهمس فى أذن عمرو بأن لله جنوداً من عسل .

وكتب معاوية[٣] إلى شرحبيل بن السمط الكندى - وهو عدو لجرير بن عبد الله البجلى الذى أرسله على طالبا البيعة له من معاوية - أما بعد « فإن جرير بن عبد الله قدم علينا من عند على بن أبى طالب بأمر . فأقدم علينا . ودعا معاوية يزيد بن أسد وبسر بن أبى ارطاة وعمرو بن سفيان ومخارق بن الحرث الزبيدى وحمزة بن مالك وحابس بن سعد الطائى ، وهؤلاء رؤوس قحطان واليمن .

وكانوا ثقات عند معاوية ، وهم بنو عم شرحبيل بن السمط . فأمرهم أن يلقوه ويخبروه كل على حدة أن عليا هو الذى قتل عثمان .

فلما قدم شرحبيل على معاوية أمر الناس أن يتلقوه ويعظموه . فلما دخل على معاوية تكلم معاوية فقال يا شرحبيل إن جرير بن عبد الله قدم علينا يدعونا إلى بيعة على وعلى خير الناس لولا أنه قتل عثمان بن عفان . وقد حبست نفسى عليك وإنما أنا رجل من الشام أرضى ما رضوا وأكره ما كرهوا .

فقال شرحبيل : اخرج فانظر . فالقيه هؤلاء النفر الموطئون . فكلهم أخبره أن عليا قتل عثمان . فرجع مغضبا إلى معاوية ، فقال يا معاوية : أبى الناس إلا أن عليا قتل عثمان . والله إن بايعت لنخرجنك من شامنا ولنقتلنك .

فقال معاوية : ما كنت لأخالف عليكم . ما أنا إلا رجل من أهل الشام .

وروى ابراهيم بن محمد بن سعد بن هلال الثقفى فى « كتاب الغارات »[١] قال

---

١ ـ بين معاوية وشرحبيل بن السمط راجع المصدر السابق المجلد الأول ص ١٣٩ ـ ١٤٠

٢ ـ من أساليبه فى تهيئة أتباعه للحرب .

Books.Rafed.net

كانت غارة الضحاك بن قيس ـ بعد الحكمين وقبل النهروان .

وكتب معاوية لهم نسخة واحدة . فقرئت على الناس : أما بعد فإنا كتبنا كتاباً بيننا وبين على . وشرطنا شروطا وحكمنا رجلين يحكمان علينا وعليه بحكم الكتاب لا يعدوانه . وجعلنا عهد الله وميثاقه على من نكث العهد ولم يمض الحكم : وإن حكمى الذى كنت حكمته أثبتنى وأن حكمه خلعه .

وقد أقبل علينا على ظالما . ومن نكث فإنما ينكث على نفسه . تجهزوا للحرب بأحسن جهاز . وأعدوا آلة القتال . وأقبلوا خفافاً وثقالا . يسرنا الله وإياكم لصالح الأعمال .

وخطب معاوية فى أهل الشام فقال منددا بخصمه على . « يا أهل الشام ماظنكم برجل لم يصلح لأخيه » وذلك عندما فارق عقيل أخاه والتحق بمعاوية فى قصته المعروفة

يا أهل الشام « إن أبا لهب ـ المذموم فى القرآن باسمه ـ هو عم على بن أبى طالب فارتاع أهل الشام وشتموا عليا ولعنوه[1] » .

وروى ابراهيم[2] بن محمد بن سعد بن هلال الثقفى صاحب « كتاب الغارات » أن النعمان بن بشير قدم هو وأبو هريرة على على بن أبى طالب من عند معاوية ـ بعد أبى مسلم الخولانى ـ يسألانه أن يدفع قتلة عثمان إلى معاوية ليقيدهم بعثمان لعل الحرب أن تنطفأ ويصطلح الناس .

وإنما أراد معاوية أن يرجع مثل النعمان وأبى هريرة ـ من عند على ـ إلى الناس وهم لمعاوية عاذرون ولعلى لائمون .

فقال لهما ائتياه فانشداه الله وسلاه بالله لما دفع إلينا قتلة عثمان فإنه قد آواهم ومنعهم . ثم لا حرب بيننا وبينه . فإن أبى فكونوا شهداء عليه .

---

١ ـ ابن أبى الحديد ، شرح نهج البلاغة ١/١٧٢ .

٢ ـ من أساليبه فى إضعاف حجة خصمه . شرح نهج البلاغة ١/٢١٣

Books.Rafed.net

وأقبلا على الناس فأعطاهم ذلك .

وخطب[1] معاوية فى أهل الشام ـ عندما قدم عليه جرير بن عبد الله البجلى طالباً البيعة منه للإمام .

ثم قال : الحمد لله الذى جعل الدعائم للإسلام أركانا والشرائع للإيمان برهانا . يتوقد قبسه فى الأرض المقدسة جعلها الله محل الأنبياء والصالحين من عباده فأحلهم أرض الشام ورضيهم لها لما سبق من مكنون علمه من طاعتهم ومناصحتهم خلفاءه والقوام بأمره والذابين عن دينه وحرماته . ثم جعله لهذه الأمة نظاما فى سبيل الخيرات إعلاما يردع الله بهم الناكثين ويجمع بهم ألفة المؤمنين .

أعنى أقواما يوقظون نائمنا ويخيفون آمننا ، ويريدون إراقة دمائنا وإخافة سبلنا . وقد علم الله أنا لا نريد لهم عتاباً ولا نهتك لهم حجابا . جعلهم على ذلك البغى والحسد فنستعين الله عليهم .

أيها الناس قد علمتم أنى حدثت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وأمير المؤمنين عثمان بن عفان عليكم . وإنى لم أقم رجلا على خزاية قط . وإنى ولى عثمان وقد قتل مظلوماً والله تعالى يقول :

«ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً» وأنا أحب أن تعلموني ذات أنفسكم فى قتل عثمان .

فقام أهل الشام فأجابوا إلى الطلب بدم عثمان وبايعوا معاوية على ذلك .

وروى نصر بن مزاحم ، فى كتاب صفين[2] ، عن صالح بن صدقة عن ابن اسحق عن خالد الخزاعى أن عثمان لما قتل وأتى معاوية بكتاب على يعزله عن الشام صعد المنبر .

---

١ ـ من أساليبه فى استمالة أهل الشام : المصدر السابق ١/٢٤٨ ـ ٢٥١

٢ ـ من أساليبه فى استمالة أهل الشام ، شرح نهج البلاغة ، ١/٢٥٣ ـ ٢٥٤ .

Books.Rafed.net

فقال لقد قمت مقامى هذا وإنى لأعلم أن فيكم من هو أقدم صحبة لرسول الله منى. ولكنى شهدت رسول الله نصف النهار فى يوم شديد الحر وهو يقول لتكونن فتنة حاضرة، .فمر رجل مقنع . فقال رسول الله وهذا يومئذ على الهدى. فقمت فأخذت بمنكبيه وحسرت عن رأسه فإذا عثمان فاقبلت بوجهه على رسول الله . وقلت : هذا يا رسول الله ؟ قال نعم . فأطبق أهل الشام مع معاوية حينئذ وبايعوه على الطلب بدم عثمان .

وذكر الواقدى[1] أن معاوية خاطب أهل الشام ـ أثناء رجوعه بعد تنازل الحسن ـ فقال : « أيها الناس إن رسول الله قال : إنك ستلى الخلافة من بعدى . فاختر الأرض المقدسة . وقد اخترتكم . فالعنوا أبا تراب . فلعنوه .

فلما كان من الغد كتب كتابا ثم جمعهم فقرأه عليهم . وفيه : هذا كتاب كتبه أمير المؤمنين معاوية صاحب وحى الله الذى بعث محمداً نبياً ، وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب فاصطفى له من أهله وزيراً وكاتباً أمينا فكان الوحى ينزل على محمد وأنا أكتبه . وهو لا يعلم ما أكتب . فلم يكن بينى وبين أحد من خلقه .

فقال له الحاضرون كلهم صدقت يا أمير المؤمنين[2]

وذكر الطبرى أن معاوية بذل لسمرة بن جندب مئة ألف درهم حتى يروى أن هذه الآية أنزلت فى على :

« ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام . وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد » .

---

١ ـ من أساليبه فى استمالة أهل الشام والتنديد بخصومه شرح نهج البلاغة ١/٣٦١ .

٢ ـ لقد كذب معاوية على الرسول فى هذا الكتاب كذبة بشعة . فلقد كان يكتب للرسول بعض رسائله للعرب . ولم يحصل ذلك إلا بعد فتح مكة حين التمس أبوه من النبى أن يشمله بعطفه ليتسنى الناس مناوءته للنبى . أما كاتب الوحى فهو زيد بن ثابت .

Books.Rafed.net

٨٢ ـــــــ

يحمل إليه الهدايا والرشى كأنها جواب على طلب منه يساوم فيه على المصالحة والغدر برؤسائه من دولة الروم . ويخرج الرسول العربى من طريق متباعد كأنه يتعمد الروغان من العيون والجواسيس . فإذا اعتقله الروم ـ ولابد أن يعتقلوه لأنه يتعرض للإعتقال ويسعى إليه ـ وقعت الشبهة على البطريق المقصود وتعذر الإطمئنان إليه من قومه بعد ذلك وعزلوه وأبعدوه إن لم ينكلوا به أشد النكال(١)

وحيلة أخرى لجأ إليها معاوية للإيقاع بخصومه هى تدبير مؤامرة اغتيال من يرى اغتياله وسيلة ناجحة فى القضاء عليه . فعل ذلك مع الأشتر والحسن بن على وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد .

هذا عدا عن ضربه خصومه ببعضهم فيستغنى ـ على ما يقول المقاد ـ بالوقيعة بينهم عن الإيقاع بهم .

ولكن معاوية ـ مع مداهنته وخبثه ـ لم يتردد ، إذا استلزمت مصالحه ذلك من الإيقاع بخصومه والتنكيل بهم بشكل من القسوة والغلظة قل أن يجدها المرء إلا فى الأمويين .

وحوادث بسر بن أبى أرطأة ، والضحاك بن قيس الفهرى ، وسفيان بن عوف الغامدى فى الإعتداء على أرواح المسلمين بعد صفين ـ مشهورة لدى الكثيرين .

وإلى القارىء طرفا منها .

ذكر ابراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفى فى « كتاب الغارات » عن ابن الكنود ، قال : حدثنى سفيان بن عوف الغامدى قال دعانى معاوية فقال إنى باعثك فى جيش كثيف ذى أداة . فالزم لى جانب الفرات حتى تمر بهيت فتقطعها فإن وجدت بها جندا فاغر عليهم ، وإلا فامض حتى تغير على الأنبار . فإن لم تجد بها جنداً فامض حتى تصل المدائن .

---

١ ـ المقاد : معاوية بن أبى سفيان ص ٧٠ ـ ٧٢ . وقد فعل مثل ذلك مع قيس بن سعد بن عبادة وجرير بن عبد الله البجلى حتى أوقع الريبة منهما فى نفس الإمام والمقربين إليه وبخاصة الأشتر .

Books.Rafed.net

وأعلم أنك إن أغرت على أهل الأنبار وأهل المدائن فكأنك أغرت على الكوفة . هذه الغارات ـ ياسفيان ـ على العراق ترعب قلوبهم وتفرح كل من له هوى فينامنهم وتدعو إلينا من خاف الدوائر . فاقتل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك . وأضرب كل من مررت به من القرى . وأحرب الأموال فإن حرب الأموال شبيه بالقتل : وهو أوجع للقلب (١) .

وروى إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفى صاحب « كتاب الغارات » أن معاوية استدعى الضحاك بن قيس الفهرى وقال له : « سر حتى تمر بناحية الكوفة وترتفع عنها ما استطعت . فمن وجدته من الأعراب فى طاعة على فأغر عليه ، وإن وجدت له مسلحة أو ضلا فأغر عليها . وإذا أصبحت فى بلدة فأمس فى أخرى ...

فأقبل الضحاك فنهب الأموال ، وقتل من لقى من الأعراب ، حتى مر بالثعلبية . فأغار على الحاج فأخذ أمتعتهم . ثم أقبل فلقى عمرو بن قيس بن مسعود الذهلى ـ وهو ابن أخى عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله ـ فقتله فى طريق الحاج وقتل معه ناساً من الصحابة »(٢) .

واستدعى معاوية بسر بن أبى أرطاة ، وكان بسر قاسى القلب فظاً سفاكاً للدماء لا رأفة عنده ولا رحمة . فأمره أن يأخذ طريق الحجاز والمدينة ومكة حتى ينتهى إلى اليمن . وقال له : لا تنزل على بلد أهله على طاعة على إلا بسطت عليهم لسانك حتى يروا أنهم لا نجاة لهم وإنك محيط بهم . ثم اكفف عنهم وادعهم إلى البيعة . فمن أبى فاقتله ، واقتل شيعة على حيث كانوا ...

فدخل بسر المدينة ـ وعامل على عليها أبو أيوب الأنصارى صاحب منزل رسول الله ـ فخرج أبو أيوب عنها هارباً . ودخل المدينة فخطب فى الناس وشتمهم

---

١ ـ شرح نهج البلاغة ١/١٤٤ .
٢ المصدر نفسه ١/١٥٤ .

Books.Rafed.net

وتهددهم وقال : شاهت الوجوه ... ثم شتم الأنصار فقال : يا معشر اليهود وأبناء العبيد ... أما والله لأوقعن بكم وقعة تشفي غليل صدور المؤمنين ... فنزل فأحرق دوراً كثيرة . . ثم خرج بسر إلى مكة . فلما قرب منها هرب قثم ابن العباس - وكان عامل علي - فدخلها بسر فقتل أهلها وأنهبهم ...

وقد روى عوانة عن الكلبي أن بسراً — لما خرج من المدينة إلى مكة — قتل في طريقه رجالا وأخذ مالا . وبلغ أهل مكة خبره فخافوه وهربوا . فخرج إبنا عبيد الله بن عباس فذبحهما بسر ، فخرج نسوة من بني كنانة فقالت امرأة منهن هذه الرجال يقتلها فما بال الولدان !!! والله ما كانوا يقتلون في جاهلية ، ولا إسلام ...

وخرج بسر من الطائف فأتى نجران فقتل عبد الله بن عبد المدان وإبنه مالكا. وكان عبد الله هذا صهراً لعبيد الله بن العباس . ثم جمع أهل نجران وقال :

يا معشر النصارى وإخوان القرود . أما والله إن بلغني عنكم ما أكره لأعودن عليكم بالتي تقطع النسل وتهلك الحرث وتخرب الديار ... وأتى صنعاء ... فدخلها وقتل منها قوماً .

وأتاه وفد مأرب فقتلهم . ثم خرج بسر من صنعاء فقتل الناس قتلا ذريعاً . ثم رجع إلى صنعاء فقتل بها مئة شيخ من أبناء فارس[1] » .

وروى أبو الحسن بن أبي سيف المدائني في « كتاب الأحداث [2] » قال : « كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله — بعد عام الجماعة — أن برئت الذمة من روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته . فقامت الخطباء في كل كورة - وعلى كل منبر - يلعنون علياً ويبرؤن منه .

وكتب معاوية إلى عماله ألا يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة .

---

١ — شرح نهج البلاغة ١/١١٧ — ١٢٠ .

٢ — من أساليبه في تثبيت مركزه ومقاومة خصومه . المصدر السابق ٣/١٥ — ١٦

Books.Rafed.net

وكتب إليهم أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه فأدنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم ، واكتبوا لى بكل ما يروى كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته .

ثم كتب إلى عماله إن الحديث فى عثمان قد كثر وفشا فى كل مصر وفى كل وجه وناحية . فإذا جاءكم كتابى هذا فادعوا الناس إلى الرواية فى فضائل الصحابة والخلفاء الأولين . ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين فى أبى تراب إلا وأتوا بمناقض له فى الصحابة .

فقرئت كتبه على الناس فرويت أخبار كثيرة فى مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها . وجد الناس فى رواية ما يجرى هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر .

وألقى إلى معلمى الكتاتيب فعلموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع. حتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن ...

ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان : انظروا من قامت عليه البينة أنه يحب علياً وأهل بيته فأمحوه من الديوان واسقطوا عطائه ورزقه . وشفع ذلك بنسخة أخرى : من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به ، واهدموا داره ... فظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر .

ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة . وكان أعظم الناس فى ذلك بلية القراء المراؤن والمستضعفون الذين يظهرون الخضوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحظوا عند ولاتهم ويقربوا مجالسهم ويصيبوا الأموال والضياع والمنازل .

ثم انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدى الديانين والذين لا يستحلون الكذب والبهتان فقبلوه ... فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن ... ثم تفاقم الأمر بعد قتل الحسين » .

تلك جوانب من أخلاق معاوية ذكرها المؤرخون المسلمون .

Books.Rafed.net

أما ما خفى عنا مما ذكره المؤرخون الآخرون فأكثر من ذلك .

وأما ما خفى على المؤرخون ـ من أخلاق معاوية ـ فأكثر من ذلك بكثير . وقد ظهر معاوية فى الأمثلة التى ذكرناها بأبشع ما يظهر به الإنسان من الكذب ومن الانتهازية السياسية . وإلى الخطوط العامة للأوضاع التى ذكرناها ، يشير العقاد بقوله [1] :

« كل شىء فى الحياة الإنسانية هين إذا هان الخلل فى موازين الانسانية . وإنها لأهون من ذلك إذا جاوز الأمر الخلل إلى إنعكاس الأحكام وإنقلابها من النقيض إلى النقيض ... فمن الناس من يحب أن تتغلب المنفعة على الحقيقة أو على الفضيلة لأنه يرجع إلى طبيعته فيشعر بحقارتها إذا غلبت مقاييس الفضائل المنزهة والحقائق الصريحة . . وإنه ليعترف بالرذيلة إذا استطاع أن يلوث الفضيلة التى يمتاز بها عليه ذوو الفضائل البينة .

وإذا لم يرجح من أخبار تلك الفترة إلا الخبر الراجح عن لعن على المنابر بأمر من معاوية لكان فيه الكفاية لإثبات ما عداه مما يتم به الترجيح بين كفتى الميزان» .

وهناك جوانب أخرى تتجلى فيها السياسة الوصولية التى سار معاوية طبقا لمتطلباتها . فلم يكتف « أمير المؤمنين » و « خليفة » رسول الله بضرب المسلمين ببعضهم بشتى الوسائل ، ومختلف المؤامرات للمحافظة على سلطانه بل حالف البيزنطيين ـ أعداء المسلمين والإسلام ـ على حساب المصلحة الإسلامية العليا . فقد عقد معاوية مع أمراء البيزنطيين سلسلة من المعاهدات الرامية إلى تثبيت قواعد ملكه على حساب الإسلام والمسلمين .

ولعل أبشع تلك المعاهدات ـ غير المتكافئة ـ تلك التى عقدها معاوية ـ بمحض اختياره ـ مع الأمير البيزنطى كونستان الثانى فى عام ٣٩ هـ . فدفع معاوية ـ وفقاً لمستلزمات هذه المعاهدة ـ الجزية للأمير البيزنطى المذكور .

---

١ ـ معاوية بن أبى سفيان ص ١١ و ١٦ .

Books.Rafed.net

كل ذلك نكاية برابع الخلفاء الراشدين عندما أعلن معاوية العصيان عليه والتمرد على القرآن وسنة النبي[١] .

لقد مر بنا الحديث عن وجهين من وجوه الكذب المنظم الذى استعمل لتثبيت حكم الامويين ونود أن نذكر ـ فى الفقرات القابلة ـ وجهاً ثالثاً من تلك الوجوه ؟ وإذا كان الوجهان السالفا الذكر قد استندا ـ بالدرجة الاولى ـ إلى جهود معاوية (يعاونه عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة) فإن الوجه الجديد ـ الذى سنذكره ـ قد استند إلى جهود أبي هريرة دون سائر الناس .

وإذا كان من المستطاع ـ كما ذكرنا ـ أن يقوم الباحث بدراسة مقارنة لهتلر وابن أبي سفيان ـ فيما يتصل ببراعة كل منهما فى الدعاية لنفسه وإضعاف حجة خصمه ـ فإنه من الممكن كذلك أن يقوم الباحث بدراسة مقارنة بغوبلز ـ وزير الدعاية فى العهد النازى ـ وزميله أبي هريرة[٢] « وزير » بن أبي سفيان .

وبقدر ما يتعلق الأمر بأبي هريرة يمكننا أن نقول : أنه أتقن فن الدعاية للأمويين اتقانا منقطع النظير ، وخدمهم خدمة جليلة فى تثبيت ركائز حكمهم فى بلاد المسلمين . وقد أظهر أبو هريرة (للمسلمين فى زمانه) بأنه أكثر الرواة صلة بالرسول . فأسرف فى الرواية عنه من الناحيتين الكمية والنوعية . فقد روى ـ من الناحية الكمية ـ أكثر مما روى غيره من المحدثين[٣] .

أما من الناحية النوعية فكان أبو هريرة يقول تارة : « سمعت من حبيبي رسول الله » وأخرى « أوصانى خليلي محمد » وثالثة : « حدثنى الصادق الصدوق » إلخ

١ ـ وقد سار عبد الملك بن مروان على منواله عندما عقد معاهدة غير متكافئة مع الأمبراطور البيزنطى جوستنيان الثانى عام ٧٠ هـ فدفع الجزية صاغراً للبيزنطيين وتنازل لهم عن قبرص وأرمينية ـ كل ذلك نكاية بالأشدق وابن الزبير ـ كما سنرى ـ .

٢ ـ أنظر شيخ المغيرة أبو هريرة للعلامة المحقق الشيخ محمود أبو رية نشرت الطبعة الثالثة منه دار المعارف بمصر عام ١٩٦٩ م « الناشر »

٣ ـ وقد أفرد الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده القسم الأكبر من الجزء الثانى ص ٢٢٨ ـ ٤١٠ لحديث أبي هريرة .

Books.Rafed.net

ولقد أدى إسرافه فى الرواية عن النبى إلى تسرب الشك للمسلمين فى صحة مايرويه فكان يتقى ذلك أحياناً بقوله : إن مالا يرويه الناس من حديث الرسول أكثر بكثير مما يرويه لهم ، وبتحذيرهم من سماع غيره من المحدثين ـ لكثرة الكذب على رسول الله آنذاك على حد زعمه ـ أحياناً أخرى .

ومما يلفت النظر حقاً أن أبا هريرة لم يلتفت إلى التناقض الذى وقع فيه ، فقد جاء بعض « أحاديثه » مناقضاً لبعض آخر كما سنرى .

ويلوح للباحث إن صحة الحديث ـ عند أبى هريرة ـ تعتمد على « صدقه » فى خدمة الأمويين .

والشىء الطريف فى أحاديث أبى هريرة أنها منصبة على مخاطبة الرعايا المسلمين دون حكامهم الفجرة الطغاة المستهترين .

وكانت تلك الأحاديث ذات أشكال مختلفة :

فمنها ما يحث المسلمين على طاعة حكام السوء .

ومنها ما يشغلهم بأمور ثانوية الأهمية بعيدة عن جوهر الدين .

ومنها ما يوجه انتباههم إلى أمور تافهة ضعيفة الصلة بحياتهم العامة والخاصة

ومنها ما يتضمن إطراء النبى على سيرة الأمويين .

ومنها ما يشير إلى إضعاف حجة من يناوئهم من المسلمين . وإلى القارىء أمثلة من ذلك سقناها على سبيل التمثيل لا الحصر :

ذكر الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده عن أبى هريرة باسانيده المختلفة أن رسول الله قال[1] : « خير أمتى القرن الذى بعثت فيهم . ثم الذين يلونهم » .

« إذا كانت الدابة مرهونة فعلى المرتهن علفها . وابن الدر يشرب . وعلى

---

١ ـ مسند أحمد بن حنبل ج ٢ ص ٢٢٨ ـ ٢٣١ و ٢٤٧ ـ ٢٥٠ و ٢٥٤ و ٢٦٠ ـ ٢٦٧ و ٢٧١ و ٢٧٢ و ٢٧٨ و ٢٨٢ و ٢٨٨ و ٣٠٦ و ٣٤٠ و ٣٥٩ و ٣٦٠ و ٣٧٣ و ٤٠١ و ٤٧٦ و ٤٧٧ و ٤٨٠ و ٤٨٣ ـ ٤٨٥ و ٤٨٨ و ٤٩٢ و ٤٩٧ و ٥٠٠ و ٥٠٣ و ٥٠٤ و ٥١٠ و ٥١٧ و ٥٢٢ و ٣٤٥ و ٤٥٦ و ٤٧٣ و ٤٧٤ و ٣٧١ و ٤٠٠ و ٣٤٣ .

Books.Rafed.net

الذى يشربه نفقته ويركب » « امرؤ القيس ـ صاحب لواء الشعراء ـ إلى النار . »
« شدة الحر من فيح جهنم فابردوا بالصلاة . » قصوا الشوارب واعفوا اللحى » .

« خمس من الفطرة: قص الشارب وتقليم الأظافر ونتف الإبط والاستحداد والختان،
« إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم فإن فى أحد جناحيه داء وفى الآخر شفاء » .
« لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها . » « لايشرب الرجل من فم السقاء،
« من ابتاع محفلة أو مصراة فهو بالخيار فإن شاء أن يردها وإن شاء يمسكها مسكها،
« أصدق بيت قاله الشاعر : ألا كل شىء ما خلا الله باطل . » « ليس على المسلم فى عبده ولا فرسه صدقة . » « لا تسبوا الريح فإنها تجىء بالرحمة والعذاب . ولكن سلوا الله خيرها وتعوذوا به من شرها »

« انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ».

« من أدرك ركعة من صلاة الفجر ـ قبل أن تطلع الشمس ـ فقد أدركها . ومن أدرك ركعة ـ من صلاة العصر ـ قبل أن تغرب الشمس فقد أدركها » .

« اليهود والنصارى لا يصبغون . فخالفوا عليهم » .

«غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود ولا بالنصارى» فجرت أربعة أنهار من الجنة : الفرات والنيل والسيحان وجيحان » .

« دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تسقها ولم ترسلها فتأكل من خشاش الأرض .

« التسبيح للرجال والتصفيق للنساء . » « إذا صلى أحدكم ثم جلس فى مصلاه لم تزل الملائكة تقول اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه ، مالم يحدث أو يقوم . »

« لا تصحب الملائكة رفقة فيها كلب أو جرس » .

فضل صلاة الجمعة على صلاة أحدكم وحده خمسة وعشرون جزء » .

من صلى على جنازة فلم يمش معها فليقم حتى تغيب عنه . ومن مشى معها فلا يجلس حتى توضع » .

Books.Rafed.net

« إذا صليتم على فاسألوا الله لى الوسيلة . قيل يارسول الله وما الوسيلة ؟ قال أعلى درجة فى الجنة لا ينالها إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أنا هو . »

« الله يحب العطاس ويبغض ـ أو يكره ـ التثاؤب » .

« إذا ولغ الكلب فى الإناء فاغسله سبع مرات » .

« إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلايتنخمن أمامه ولا عن يمينه .فإن عن يمينه ملكا ولكن ليتنخم عن يساره أو تحت قدمه اليسرى ».

« لا تبتدؤا اليهود والنصارى بالسلام . فإذا لقيتموهم فى طريق فاضطروهم إلى أضيقها ». « من اتخذ كلبا إلا كلب صيد أو زرع أو ماشية نقص من أجره كل يوم قيراط ـ القيراط بقدر جبل أحد» .

« ما يؤمن الذى يرفع رأسه قبل الإمام أن يرد الله رأسه رأس حمار» .

« لا يسب أحدكم الدهر فإن الله هو الدهر . ولا يقولن أحدكم للعنب الكرم فإن الكرم هو الرجل المسلم» .

« إذا قلت لصاحبك ـ والإمام يخطب يوم الجمعة ـ اسكت فقد لغوت» .

« أن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة فإذا أوصى حاف فى وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار » .

وأن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل فى وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة »

وحدث أبو هريرة مروان بن الحكم فقال : حدثنى حبى أبو القاسم الصادق المصدوق. «إن هلاك أمتى على يدى غلمة سفهاء من قريش» .

« لن يزال على هذا الأمر عصابة على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك » .

« من أطاعنى فقد أطاع الله . ومن أطاع الأمير فقد اطاعنى ».

Books.Rafed.net

جددوا إيمانكم . قيل يا رسول الله وكيف ؟ قال اكثروا من قـــول لا إله إلا الله» .

« رضى الله لكم ثلاثاً . أن تعبدوه ولا تشركوا به أحداً . وأن تنصحوا لمن ولاه الله أمركم . وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا» .

من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . قالها عشر مرات حتى يصبح كتب له بها مئة حسنة ومحى عنه بها مئة سيئة وكانت له عدل رقبة وحفظ بها يومئذ حتى يمسى . ومن قال مثل ذلك حين يمسى . كان له مثل ذلك » .

في الجمعة ساعة ما دعا الله فيها عبد مؤمن بشيء إلا استجاب الله له» . «تسحروا فإن السحور بركة» .

« إذا انقطع شسع أحدكم فلا يمشى فى النعل الواحدة . . » « إذا انتعل أحدكم فليبدأ باليمنى . وإذا خلع فليبدأ باليسرى . »

إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه ـ فبات وهو عليها ساخط ـ لعنتها الملائكة حتى تصبح » . « إن الملائكة تجيء يوم الجمعة فتقعد على أبواب المسجد فيكتبون السابق والثانى والثالث والناس على منازلهم حتى يخرج الامام . فإذا خرج الامام طويت الصحف » .

«من حج البيت ولم يفسق ولم يرفث رجع كما ولدته أمه» .

«بينما رجل يمشى على طريق وجد غصن شوك فقال : لأرفعن هذا لعل الله يغفر لى به . فرفعه فغفر الله له به وأدخله الجنة » .

حدثنا عبد الله حدثنى أبى حدثنا اسماعيل عن الجريرى عن خالد بن غلاق العيسى قال نزلت على أبى هريرة .

قال: ومات ابن لى فوجدت عليه . فقلت : هل سمعت من خليلك شيئا تطيب به أنفسنا عن موتانا ؟ قال نعم .

Books.Rafed.net

سمعته يقول : «صغارهم دعاميص الجنة» .

حدثنا عبد الله حدثنى أبى حدثنا هاشم حدثنا المبارك عن الحسن قال : بينا أبو هريرة يحدث أصحابه إذ أقبل رجل إلى أبى هريرة - وهو فى المجلس - فأقبل وعليه حلة له . فجعل يمس فيها حتى قام على أبى هريرة فقال يا أبا هريرة: هل عندك فى حلتى هذه من فتيا ؟ فرفع رأسه إليه وقال :

حدثنى الصادق المصدوق خليلى أبو القاسم قال :

«بينا رجل ممن كان قبلكم يتبختر بين بردين ، فغضب الله عليه فأمر الأرض فبلعته» .

«ينزل الله كل ليلة إلى السماء الدنيا لنصف الليل الآخر أو لثلث الليل الآخر فيقول :

من ذا الذى يدعونى فأستجيب له ؟

من ذا الذى يسألنى فأعطيه ؟

من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له حتى يطلع الفجر» .

«أزرة المؤمن من أنصاف الساقين فأسفل من ذلك إلى ما فوق الكعبين فما كان من أسفل من ذلك ففى النار» .

«ان الله يحب العطاس ويكره التثاؤب» .

«تلقون من بعدى اختلافا وفتنة» .

فقال له قائل من الناس : فمن لنا يا رسول الله قال :

عليكم بالأمين وأصحابه - يشير إلى عثمان بذلك .

ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث إلا أدخلهما الله وإياهم بفضل رحمته الجنة .

يقال لهم ادخلوا الجنة فيقولون : حتى يجىء آباؤنا . ثلاث مرات .

Books.Rafed.net

فيقولون مثل ذلك . فيقال لهم ادخلوا الجنة أنتم وأبواكم» .

«إن رجلا رأى كلبا يأكل الثرى من العطش فأخذ الرجل خفه فجعل يغرف له حتى رواه فشكر الله له فأدخله الجنة » .

« يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم ـ وهو خمسمائة عام» .

«سألت ربى فوعدنى أن يدخل من أمتى سبعين ألفاً ـ فى الجنة ـ على صورة القمر ليلة البدر .

فاستزدت فزادنى مع كل ألف سبعين ألفا . فقلت : أى ربى إن لم يكن هؤلاء مهاجرى أمتى ! !

قال : إذن أكملهم لك من الاعراب » .

من سبح الله فى دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين وحمد الله ثلاثا وثلاثين وكبر الله ثلاثا وثلاثين ـ فتلك تسع وتسعون . ثم قال ـ تمام المئة ـ لا إله إلا الله وحده لا شريك له . له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير .

غفر الله له خطاياه» .

قال أبو هريرة : قلت للنبى من أسعد الناس يوم القيامة ؟

فقال : لقد ظننت ـ يا أبا هريرة ـ أن لا يسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث :

أسعد الناس بشفاعتى ـ يوم القيامة ـ من قال لا إله إلا الله خالصة من قبل نفسه» .

وذكر أبو هريرة أنه سمع حبيبه أبا القاسم يقول : « الصلوات الخمس والجمعه إلى الجمعه ، ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن ما اجتنبت من الكبائر » .

وقال أبو هريرة : « أوصانى خليلى رسول الله بثلاث :

الوتر قبل النوم . وركعتى الضحى ، وصوم ثلاثة أيام من كل شهر .

« صلاة مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام » . « لا مرأة مومسة مرت بكلب على رأس ركى يلهث قد كاد يقتله العطش فنزعت خفها فأوثقته بخمارها فنزعت له من الماء فغفر لها بذلك » .

Books.Rafed.net

— ٢ —

إتخاذهم الدين وسيلة لقمع حركات المسلمين الذين طالبوا والخلفاء، الأمويين بتطبيق مبادىء الدين على تصرفاتهم .

أى أن الأمويين كانوا يتظاهرون بالتدين فيدعون المسلمين ـ فى خطبهم وخطب ولاتهم ـ إلى التمسك بالدين الذى لا يتمسكون هم ولا ولاتهم بتعاليمه .

وكانت غايتهم من ذلك ـ بالطبع ـ هى صرف الناس عن المطالبة بتطبيق الدين على شؤون الحياة من جهة وعاملا من العوامل التى يبرر الأمويون فيها اعتداءاتهم على أرواح المسلمين وممتلكاتهم .

وقد أصبح الأمويون بهذا النوع من التصرف ممن يشملهم منطوق الآيات التالية التى وردت فى القرآن : جاء فى سورة البقرة .

ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون .

وإذا قيل لهم : لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . . وجاء فى سورة البقرة أيضاً .

(أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) .

ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه وهو ألد الخصام . وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد . وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم وبئس المهاد . وإلى القارىء نماذج من تصرفات الأمويين فى هذا الباب .

خطب زياد بن أبيه فى حشد كبير من المسلمين فنعى عليهم عدم تمسكهم بالدين

Books.Rafed.net

ونسى أو تناسى نفسه وخليفته وأثر كل منهما فى ذلك الوجه من وجوه الحياة الإسلامية . ثم قال :

(كأنكم لم تسمعوا نبى الله ولم تقرءوا كتاب الله ولم تعلموا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته ... إنى لأقسم بالله لآخذن الولى بالولى والمقيم بالضاعن والمقبل بالمدبر . .

أيها الناس لقد أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة . نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ونذود عنكم بفىء الله الذى خولنا . فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل فيما ولينا[1].

فزياد بن سمية إذن يتهم المسلمين الذين يطالبون الأمويين باتباع تعاليم الدين فى تصرفاتهم بأنهم لم يقرؤوا كتاب الله ولم يسمعوا أحاديث نبيه وأنهم جاهلون بما أعد الله من الثواب لأهل طاعته والعقاب لأهل معصيته . فى حين أن زياداً ـــ وأسياده الأمويين ـــ أولى بسماع ذلك واتباعه . فقد أعد الله الثواب والعقاب للذين يطيعونه ويتبعون أوامره ويجتنبون عما ينهى عنه .

وعندى إن جانباً من تعبير المسلمين عن طاعتهم لله يتمثل فى عصيانهم أوامر ولاة السوء (أمثال زياد بن أبيه) الذين عصوا الله فيما كانوا يعملون .

ولا ندرى فيما إذا كانت هناك طاعة لله أفضل من عصيان أوامر الخارجين على تعاليمه !!

أما استطراد ابن سمية فى التهديد والوعيد (إلى حد الخروج عن أوامر الله) وتصميمه على أخذ الولى بالولى والمقيم بالضاعن والمقبل بالمدبر فشىء يناقض قول الله « ولا تزر وازرة وزر أخرى » .

وأما زعمه بأنه والأمويين قد جعلهم الله للناس ساسة فكذب على الله والناس ، ذلك لأنهم نصبوا أنفسهم حكاماً عن طريق تمردهم على الله ورسوله .

---

١ ـ ابن الأثير : « الكامل فى التاريخ » ٣/٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

Books.Rafed.net

وأما قوله بأنهم عن الناس ذادة فلسنا ندرى كيف يذودون عن الناس بعد الذى ظهر منهم من تمزيق لمصالح الناس وتحد لمبادىء الدين! . ولعله كان يقصد أنه - وأسياده الأمويين - يذودون عمن سكت عن موبقاتهم ، وشاركهم اقتسام منافع الملك والتمتع بثمرات « بساتين قريش » ..

وإذا كان الأمر كذلك فهل من الإنصاف لله أن يزعم ابن أبيه أنه يسوس المسلمين بسلطان الله ! ! . ولو أنه قال : انه يسوسهم بسلطان الأمويين — الذى لا يرضاه الله — لما أخطأ ولا تجنى .

وأما إضافة عبارة « الذى أعطانا » بعد عبارة « بسلطان الله » فشىء يمجه الذوق الإسلامى ، ويأباه التاريخ .

ولا ندرى كيف أعطى الله سلطانه للأمويين الذين حاربوه فى شخص نبيه الكريم ! !

وخطب الحجاج بن يوسف فى أهل البصرة فقال :

«ياأهل العراق إنى قداستعملت عليكم محمداً ابنى وبه الرغبة عنكم...وقد أوصيته فيكم خلاف وصية رسول الله بالأنصار . فإنه أوصى أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم . وقد أوصيته أن لا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم »[1] .

ولسنا نعرف سبب وصيته تلك بعدم التجاوز عن المسىء وعدم القبول من المحسن — إلا إيغاله فى قتل الناس .

وإذا جاز للحاكم — فى بعض الأحيان — أن لا يتجاوز عن المسىء فإنه لا يجوز عدم القبول من المحسن .

ثم هل يجيز الاسلام ذلك ؟

وخاطب الحجاج جموعا من المسلمين فقال :

---

١ - المسعودى : «مروج الذهب ومعادن الجوهر» ٣/ ٨٥-٨٦ .

Books.Rafed.net

(إنى لارى رؤوساً قد أينعت وقد حان قطافها . إنى لأنظر الدماء بين العمائم واللحى ... ثم قرأ قوله تعالى : وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان . فكفرت بأنعم الله فأذاقها البأس والجوع والخوف بما كانوا يصنعون . وأنتم أولئك ...

إنكم أهل بغى وخلاف وشقاق ونفاق . فإنكم طالما أوضعتم فى الشر وسننتم سنن البغى ... فو الله لأذيقنكم الهوان ... ولألحونكم لحو العود ولأعصبنكم عصب السلمة حتى تذلوا . ولأضربنكم ضرب غرائب الابل حتى تذروا العصيان وتنقادوا) .

فالمسلم - بنظر الحجاج - هو الذى يستسيغ موبقات الأمويين ويرتاح لاستهتار الحجاج ، ويفوض أمره لله . وإلا فهو معرض - فى كل لحظة - لشتى صنوف العقاب . أما أن يبحث الحجاج - (أمير) المسلمين - عن عوامل التذمر ، ويسعى إلى إزالتها بالمعاملة الحسنة والسير وفق مستلزمات الشريعة الاسلامية فشىء لم يخطر بباله . وسبب ذلك أنه - وأسيـــاده الامويين - كانوا من الآمرين بالمعروف التاركين له .

وحج عبد الملك بن مروان بالناس فى عام (٧٥ هـ) - على ما يذكر ابن الاثير[1] فقال (لست بالخليفة المستضعف - يعنى عثمان - ولا بالخليفة المداهن - يعنى معاوية - ولا بالخليفة المأفون - يعنى يزيد - .

ألا وإنى لا أدارى هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لى قناتكم ... والله لا يأمرنى أحد بتقوى الله - بعد مقالى هذا - إلا ضربت عنقه . ثم نزل .) أى إن حفيد طريد رسول الله يريدها جاهلية صرفة مبنية على القوة الغاشمة وإراقة الدماء.

أما المسلم الذى ينبه (الخليفة) نحو تقوى الله فسوف ينال حتفه - وهو أمر

---

١ - ابن الأثير : «الكامل فى التاريخ» ٤/٣٣-٣٤ .

Books.Rafed.net

على جانب كبير من الخطر على الدين والأخلاق .

ومن الطريف أن نذكر فى هذه المناسبة أن المفروض بعبد الملك من حيث كونه خليفه المسلمين أن يأمر هو الناس بتقوى الله وأن يعاقب من يتمرد على أوامر الله . أما أن يتمرد الخليفة نفسه على الله وتعاليمه ويعصيه عصياناً مضاعفاً ـ بتمرده على أوامره أولا وبقتله من يمنعه عن ذلك التمرد ثانياً ـ فأمر على جانب كبير من الخطر على الدين والأخلاق .

ومن الطريف أن نذكر فى هذه المناسبة أن عبد الملك بن مروان ـ عبد الملك (الخليفة) الجبار المتمرد على الله ـ عندما شاخ وضعف وقرب من الموت ، أخذ يشعر بحقارة نفسه واستصغارها أمام سلطان الله ـ شأن كل إنسان فى الأوقات الحرجة ـ فندم . ولات ساعة مندم . قال ابن الاثير[1] :

(لما نزل بعبد الملك بن مروان الموت أمر بفتح باب قصره فإذا قصار يقصر ثوباً . فقال يا ليتنى كنت قصاراً ... فقال سعيد بن العزيز : الحمد لله الذى جعلهم يفزعون إلينا ولا نفزع إليهم .

وقال سعيد بن بشير : إن عبد الملك حين ثقل جعل يلوم نفسه ويضرب يده على رأسه وقال : وددت أن كنت أكتسب يوماً بيوم ما يقوتنى وأشتغل بطاعة الله . فذكر ذلك لابن حازم فقال : الحمد لله الذى جعلهم يتمنون ـ عند الموت ـ ما نحن فيه ، ولا نتمنى ـ عند الموت ما هم فيه) .

وسبب ذلك واضح ، هو أن عبد الملك ـ ومن هم على شاكلته ـ يخافون الله لموبقاتهم فى الوقت الذى يشعرون فيه أنهم ملاقوه وتنعكس الآية عند غيرهم من أنصار الله .

فقد روى عن الامام على بن أبى طالب أنه قال : عندما ضربه ابن ملجم

---

١ ـ الكامل فى التاريخ ٤/٤١ .

Books.Rafed.net

وشعر بالموت ـ (فزت ورب الكعبة) ـ فأطلقها صيحة ، لا شعورية ، مرحباً بلقاء ربه لأنه كان عف اللسان واليد والقلب .

ذلك جانب من جوانب فلسفة الأمويين فى الحكم .

وقد وضع معاوية بن أبى سفيان أصبعه على موطن الداء فى الحكم الأموى .

ومعاوية بالطبع أعرف بدخائل ذلك الحكم من غيره ـ حين قال ـ عندما تلقاه رجال من قريش بعد عام الجماعة فقالوا :

الحمد لله الذى أعز نصرك وأعلا كعبك ـ (أما بعد فإنى والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ولا مسرة بولايتى . ولكنى جالدتكم بسيفى هذا مجالدة . ولقد رضت بكم نفسى على عمل ابن أبى قحافة وأردتها على عمل عمر ، فنفرت من ذلك نفاراً شديداً . وأردتها على ثنيات عثمان ، فأبت . فسلكت بها طريقاً لى ولكم فيه منفعة ـ مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة . فان لم تجدونى خيركم فإنى خير لكم ولاية .

يا أهل المدينة إقبلونا بما فينا . فان ما وراءنا شر لكم . وإن معروف زماننا هذا منكر زمان قد مضى ، ومنكر زماننا معروف زمان لم يأت[1] ».

ومما يلفت النظر حقاً أن الأمويين وولاتهم لم يصغوا لنصح الناصحين من المسلمين وقد مر بنا موقف من مواقف عبد الملك فى هذا الشأن . وهناك أمثلة أخرى كثيرة من هذا القبيل .

خطب الحجاج متذمراً من أهل العراق ، فقال : له جامع المحاربى أما إنهم لو أحبوك لأطاعوك . على أنهم ما شنئوك لنسبك ولا لبلدك ، ولا لذات نفسك فدع عنك ما يباعدهم منك إلى ما يقربهم إليك .

فقال الحجاج : ما أرانى أرد بنى اللكيعة إلى طاعتى إلا بالسيف .

---

١ ـ ابن عبد ربه : «العقد الفريد» ٢/٣٦١ .

Books.Rafed.net

فقال أيها الأمير : إن السيف إذا لاقى السيف ذهب الخيار .

قال الحجاج : الخيار يومئذ لله .. قل أجل .. ولكنك لا تدرى لمن يجعله الله . .

قال الحجاج : والله لقد هممت أن أخلع لسانك فأضرب به وجهك .

فقال ياحجاج : إن صدقناك أغضبناك وإن كذبنا أغضبنا الله . فغضب الأمير أهون علينا من غضب الله (١) .

ويلاحظ — فى الظاهر — أن جامع المحارق لم يقل للحجاج شيئاً يستلزم أن يهدده الحجاج بالقتل ! ! غير إننا إذا نفذنا إلى الجانب النفسى العميق — فى هذا الموضوع — أمكننا أن نقول :

إن جامع المحارق قد استفز الحجاج وأثار كوامن نفسه فكان طبيعياً أن يجيبه الحجاج بالشكل الذى مر بنا ذكره . فالحجاج — فى قرارة نفسه — عارف أنه متمرد على الله وعلى رسوله ، وإن حكم الله سيكون عليه لا له . ولكنه — مع هذا — حاول أن يخفى ذلك فى قرارة نفسه كلما وجد إليه سبيلا ، فلما حادثه جامع — بالذى ذكرناه — تحركت نوازع نفسه فطفحت تهديداً على لسانه ليقطع الحديث على جامع ويخيفه لئلا يعود إليه فى المستقبل .

و « دخل إعرابى على سليمان بن عبد الملك فقال : — يا أمير المؤمنين — إنى أريد أن أكلمك بكلام ... فإذا أمنت بادرة غضبك فسأطلق لسانى بما خرست به الألسن ... تأدية لحق الله .

يا أمير المؤمنين أنه قد تكنفك رجال أساؤا الإحسان لأنفسهم ، وابتاعوا دنياهم بدينهم ورضاك بسخط ربهم ، وخافوك فى الله ، ولم يخافوا الله فيك . . . فلا تأمنهم على ما يأمنك الله عليه ، إنهم لم يأتوا إلا ما فيه تضييع ، وللأمة خسف

---

١ — ابن قتيبة « عيون الأخبار » ٢/٢١٢ طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة .

Books.Rafed.net

وعسف . وأنت مسئول عما اجترموا ، وليسوا مسئولين عما اجترمت . فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ... فتغافل سليمان كأن لم يسمع شيئاً .

وخرج الإعرابى فكان آخر[1] العهد به .

وموقف سليمان هذا لا يختلف عن موقف الحجاج من الناحية المبدئية العامة ، وان اختلف عنه من حيث الشكل والمظهر الخارجى .

فقد صمت سليمان وانطوى على نفسه بدلا من أن يجيب كما أجاب الحجاج . وسليمان بصمته هذا كتم نوازع نفسه التى أظهرها الحجاج . غير أن الأمر ، مع هذا ، أعمق من ذلك وأكثر تعقيداً .

فقد صرح الإعرابى ـــ على بساطته ـــ بما يجول فى نفسه ، وألقى اللوم ـــ فى ظاهره ـــ على حاشية الملك سليمان . وقد فاته أن يتذكر أن سليمان مسئول عن حاشيته لأنه اختارها وفق إرادته ووفق هواه ومزاجه . وأخذ هؤلاء ـــ بدورهم يقومون بضروب الأفعال التى يرتضيها مزاج الملك . وإذا بدر منهم ما يثيره ـــ أحيانا ـــ حمل ذلك منهم على حسن النية .

فسليمان الأموى لا « يصلح » إلا بحاشية فاسدة . والحاشية الصالحة لا تصلح لسليمان .

لقد فتح الأمويون قلوبهم كما فتحوا خزائن بيت مال المسلمين لكل من حدثته نفسه بالخروج على أسس الدين أو مناوءة الإمام على بن أبى طالب وتعاليمه .

فقد انضوى تحت لواء معاوية ـــ مثلا ـــ « أثناء نزاعه مع على » كل من كان حاقداً على ابن أبى طالب لعدالته وسلامة معتقداته فى السياسة والدين والأخلاق . وفى مقدمة أولئك :

---

١ ـ المسعودى « مروج الذهب » ومعادن الجوهر ٣/١١٥ ـ ١١٦ .

Books.Rafed.net

عبيد الله بن عمر بن الخطاب الذى هرب خوفاً من أن يقيده الإمام بالهرمزان الذى قتله ظلما .

ولجأ إلى معاوية أيضاً مصقلة بن هبيرة الشيبانى الذى اشترى أسرى الخوارج من جماعة الخريت بن راشد السامى بعد أن التوى بما شرطه على نفسه .

وفر إلى معاوية كذلك القعقاع بن شور بعد إعتدائه على أموال المسلمين .

والتحق بمعاوية أيضاً النجاشى بن الحرث بن كعب الشاعر المعروف . وبما أن قضية هروب النجاشى تكشف بعض الجوانب من أخلاق الإمام — بالإضافة إلى طرافتها — فقد رأينا أن ننقلها إلى القارىء ..

حدث ابن الكلبى عن عوانه . قال : خرج النجاشى فى أول يوم من شهر رمضان فمر بأبى سمال الاسدى وهو قاعد بفناء داره . فقال له أين تريد ؟ فقال :

أردت الكناسة . فقال : هل لك فى رؤوس وآليات قد وضعت فى التنور من أول الليل فأصبحت قد أينعت وقد تهرت ! ! .

قال ويحك ! فى أول يوم من رمضان ! . قال دعنا مما لا يعرف .

قال ثم مه ! قال اسقيك من شراب كالورس . يطيب النفس ، يجرى فى العرق ويزيد فى الطرق ، يهضم الطعام ، ويسهل للقدم الكلام . فنزل فتغديا . ثم أتاه بنبيذ فشرباه .

فلما كان آخر النهار. علت أصواتهما ، ولهما جار من شيعة على ، فأتاه فأخبره بقصتهما . فأرسل إليهما قوماً فأحاطوا بالدار .

فأما أبو سمال فوثب إلى دور بنى أسد فأفلت، وأخذ النجاشى فأتى به إلى على فلما أصبح أقامه فى سراويل فضربه ثمانين جلده[1] .

١ — ابن أبى الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ١/٣٦٦ — ٣٦٨ .

Books.Rafed.net

وروى صاحب « كتاب الغارات [١] » أن علياً لما حد النجاشى غضبت اليمانية لذلك وكان أخصهم به طارق بن عبد الله بن كعب النهدى . فدخل عليه فقال يا أمير المؤمنين ما كنا نرى أهل المعصية والطاعة ، وأهل الفرقة والجماعة — عند ولاة العدل ومعادن الفضل — سيان فى الجزاء حتى رأينا ما كان من صنيعك بأخى الحرث فأوغرت صدورنا . .

فقال على : وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين !! وهل هو إلا رجل من المسلمين انتهك حرمة من حرم الله فأقمنا عليه حدا كان كفارته .

ان الله تعالى يقول : ولا يجرمنكم شنئآن قوم على أن لا تعدلوا . إعدلوا هو أقرب للتقوى .

قال: فخرج طارق من عنده فلقيه الاشتر فقال ياطارق: انت القائل لأمير المؤمنين أوغرت صدورنا وشتت أمورنا ؟

قال طارق : نعم أنا قائلها .

قال : والله ماذاك كما قلت . إن صدورنا له لسامعة وإن أمورنا لجامعة . فغضب طارق وقال ستعلم يا أشتر غير ما قلت . فلما جنه الليل همس والنجاشى إلى معاوية ، فلما قدما عليه دخل آذنه فأخبره بقدومهما — وعنده وجوه أهل الشام منهم : عمرو بن مرة الجهنى وعمرو بن صيفى وغيرهما . فلما دخلا نظر معاوية إلى طارق وقال : مرحبا بالمورق غصنه المعرق أصله المسود غير المسود من رجل كانت منه هفوة ونبوة باتباعه صاحب الفتنة ورأس الضلالة والشبهة . . فقام طارق فقال يا معاوية إنى متكلم فلا يسخطك . ثم قال :

أما بعد فان ما كنا نوضع فيما أوضعنا فيه « بين يدى إمام تقى عادل » مع رجال من أصحاب رسول الله أتقياء مرشدين ما زالوا منارا للهدى ، ومعالم للدين ، خلفا عن سلف مهتدين أهل دين لا دنيا . كل الخير فيهم . اتبعهم من الناس إقبال

---

١ — طبع أكثر من مرة فى طهران إيران مع تعليق الأستاذ السيد جلال الدين المحدث.

Books.Rafed.net

وأهل بيوتات وشرف ليسوا بناكثين ولا قاسطين ، فلم يكن رغبة من رغب منا عنهم ؛ وعن صحبتهم إلا بقرارة الحق حيث جرعوها ولوعورته حيث أسلكوها وغلبت عليهم دنياً مؤثرة وهوى متبع .

فلا تفخرن يا معاوية إن شددنا نحوك الرحال وأوضعنا إليك الركاب .. فعظم على معاوية ما سمعه . وغضب ولكنه أمسك . وقال يا عبد الله : إنا لم نرد بما قلناه أن نوردك مشرع ظمأ ولا ان نصدرك عن مكرع رى . ولكن القول قد يجرى بصاحبه إلى غير ما ينطوى عليه من الفعل .

ثم أجلسه معه على سريره ... وأقبل نحوه بوجهه يحدثه حتى قام وقام معه عمرو بن مرة وعمرو بن صيفى الجهنيان. فأقبلا عليه بأشد العتاب وأمضه، يلومانه فى خطيته وما واجه به معاوية .

فقال طارق : والله ما قمت بما سمعتماه حتى خيل إلى أن بطن الأرض خير لى من ظهرها عند سماعى ما أظهر من العيب والنقص لمن هو خير منه فى الدنيا والآخرة (١) .

فلم يكن طارق يرى — وهو على حق — أن أهل المعصية والطاعة ، وأهل الفرقة والجماعة — أى الخصوم والأنصار على السواء — سيان فى الجزاء ، عند ولاة العـــدل ، إلا حين رأى معاملة الإمام المسلمين بصورة عامة وموقفه من النجاشى (٢) — شاعره — بصورة خاصة . ولكن ذلك الموقف العادل — مع هذا — قد أوغر صدر طارق وأثار حفيظة قومه على ما يقول . فقد كان قومه — على زعمه — يتوقعون أن يغض الإمام طرفه عن هفواتهم لاتصالهم به ووقوفهم معه أزاء خصومه الذين انغمسوا فى الموبقات إلى الاذان .

---

١ — شرح نهج البلاغة ١/٣٦٧

٢ — شاعر الأمير — فى الماضى — يقابل مدير الدعاية فى عهدنا ويتمتع عادة بامتيازات كثيرة معرفة من الناحيتين المادية والمعنوية .

Books.Rafed.net

ويلوح للباحث إن طارق بن عبد الله كان جاهلا بنفسية الإمام ـــ وإن كان ملتصقا به ـــ . فغاب عن ذهنه أن الصديق الوحيد الإمام هو الحق وإشاعة العدل بين الناس . وقد دفعه جهله إلى إعلان استغرابه من موقف الإمام ـــ الطبيعى ـــ من النجاشى . فالنجاشى ـــ بنظر الإمام ـــ رجل من المسلمين انتهك حرمة من حرم الله فاستحق على ذلك العقوبة الشرعية المناسبة .

وهنا يكمن سر خلود الإمام ـــ على مر الأجيال ـــ ، ويتجلى الإمام ـــ فى اتباعه الحق ـــ كالطود ينحدر عنه السيل ولا يرقى إليه الطير . وفى هذه النقطة بالذات يصعق مناوؤه ويتخاذلون فيذهبون مع الملك بالأيام التى انسلخت من أعمارهم أثناء الحياة .

وفى هذه النقطة بالذات كذلك يبرز أنصار الإمام ومشايعوه على السواء . فطارق المار الذكر لم يكن من أنصاره ـــ من مشايعيه . وينعكس الأمر عند الاشتر كما رأينا .

ولم يكن الإمام غافلا عما ذكرناه . ولكنه كان مقيدا ـــ فى سياسته العامة ـــ بقيود الشريعة ، مدفوعاً إلى اتباعها . فكان يقف مع النصوص لا يتعداها إلى الاجتهاد والأقيسة إذ لا اجتهاد فى معرض النص .

وكان الإمام يطبق أمور الدنيا على أمور الدين ، ويسوق المسلمين جميعاً مساقاً واحداً . ولا يرفع ولا يضع إلا بالكتاب والسنة . ولم يكن يرى مخالفة الشرع لأجل السياسة سواء أكانت سياسة دينية أم دنيوية .

ولم يكن أيضاً ينزل العقوبة ـــ بمن يستحقها ـــ إلا إذا ثبت عنده أن الإنسان قام بعمل يستوجب العقاب . أى أن الأصل ـــ عنده ـــ براءة الذمة كما يقولون . ولا يعاقب قبل حدوث الجرم .

فالإمام إذن ـــ وإن فتح قلبه للمشايعين ـــ لم يتردد فى إزاحتهم عنه كلما آنس بتصرفاتهم خروجا على الدين . وإذا صح ماذهبنا إليه جاز لنا أن نقول أن أولئك

Books.Rafed.net

المشايعين كانوا — فى عواطفهم — مع خصومه قبل إلتحاقهم الظاهر بهم . ولا تخرج عملية الالتحاق تلك عن كونهم حلوا أجسامهم من مكان إلى مكان . والعكس صحيح كذلك .

ولقد أشار الإمام إلى هذا المعنى حين قال : « إنى وشيعتى فى ميثاق الله لايزاد فينا رجل ولا ينقص إلى يوم القيامة (١) .

تذكرنا القصة الآنفة الذكر بقصص أخرى مشابهة من هذا القبيل . لعل أطرفها وأهمها ما تذكره كتب التاريخ والأدب العربى فى معرض التحدث عن موقف طائفة من فضليات نساء المسلمين « كن نصرن علياً فى صفين » من معاوية ابن أبى سفيان بعد مصرع ابن أبى طالب . قال ابن عبد ربه :

« وفدت سودة ابنة عمارة بن الاشتر الهمدانية على معاوية ... فقال لها : أنت القائلة لأخيك — يوم صفين :

شمر كفعل أبيك يا ابن عمارة ... يوم الطعان وملتقى الأقران
وأنصر علياً والحسين ورهطه ... وأقصد لهند وابنها بهوان
إن الإمام — أخا النبى محمد — ... علم الهدى ومنارة الايمان
فقد الجيوش وسر أمام لوائه ... قدما بأبيض صارم وسنان

قالت : مات الرأس وبتر الذنب . فدع عنك تذكار ما قد نسى ... هذا ابن ارطاة قدم بلادى ، وقتل رجالى وأخذ مالى ، فإما عزلته فشكرناك ، وإما لا

---

١ — ابن أبى الحديد ، ٣٦٨/١ . روى ذلك يونس بن أرقم عن زيد بن أرقم عن زيد بن أرقم عن أبى ناجية — مولى أم هانىء — قال كنت عند على فأتاه رجل عليه زى السفر . فقال يا أمير المؤمنين إنى أتيتك من بلدة ما رأيتك لك بها محباً . قال من أين أتيت ؟ قال من البصرة . قال من البصرة ؟ قال أما انهم لو يستطيعون أن يحبونى لاحبونى . « إنى وشيعتى — فى ميثاق الله — لايزاد فينا رجل ولا ينقص إلى يوم القيامة . »

Books.Rafed.net

فعرفناك ، ، فقال معاوية : والله لقد هممت أن أردك إليه على قتب أشرس فينفذ حكمه فيك . فسكتت ثم قالت :

صلى الاله على روح تضمنه ... قبر فأصبح فيه العدل مدفوناً

قد حالف الحق لا يغبى به ثمنا ... فصار بالحق والايمان مقرونا

قال : ومن ذاك ؟ قالت : على بن أبي طالب . أتيته يوما فى رجل ولاه صدقاتنا . فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين . فوجدته قائما يصلى . فانفتل من الصلاة . ثم قال ـ برأفة وتعطف ـ ألك حاجة ؟ فاخبربه خبر الرجل فرفع يده إلى السماء وقال : اللهم إنى لم آمرهم بظلم خلقك ، ولا ترك حقك .

ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيه : قد جاءكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين(١) .

ودخلت بكادة الهلالية على معاوية فسألها عن حالها ، قالت بخير. قال . غيرك الدهر ؟ قالت : كذلك هو ذو غيره ، من عاش كبر ، ومن مات فقد .

قال عمرو بن العاص : هى والله القائلة ـ يوم صفين :

يا زيد دونك فاحتقر من دارنا ... سبقا حساما فى التراب دفينا

قد كنت أدخره ليوم كريهة ... فاليوم أبرزه الزمان مصونا

قال مروان وهى ـ والله ـ القائلة :

أترى ابن هند الخلافة مالكا ... هيهات ـ ذاك ـ وإن أراد ـ بعيد

قال سعيد بن العاص وهى القائلة :

قد كنت أطمع أن أموت ولا أرى ... فوق المنابر ـ من أمية ـ خاطبا

فالله أخر مدتى فتطاولت ... حتى رأيت من الزمان عجائبا

---

١ ـ ابن عبد ربه « العقد الفريد » ١/٢١١ ـ ٢١٢ .

Books.Rafed.net

ثم سكتوا ، فقالت أنا والله قائلة ما قالوا . وما خفى عليك منى أكثر فضحك وقال ليس بمغنينا ذلك من برك . أذكرى حاجتك . قالت . أما الآن فلا[1] .

وكتب معاوية إلى عامله فى الكوفة أن يوفد إليه الزرقاء بنت عدى بن قيس الهمدانية ، وكانت شهدت — مع قومها — صفين . فلما دخلت عليه قال « ألست الراكبة الجمل الأحمر والواقفة بين الصفين تحظين على القتال وتوقدين الحرب ؟ . والله — يا زرقاء — لقد شركت علياً فى كل دم سفكه .

قالت . أحسن الله بشارتك . فمثلك من يبشر بخير . فضحك وقال : والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب من حبكم له فى حياته . أذكرى حاجتك . قالت : آليت على نفسى أن لا أسأل أميرا أعنت عليه أبدا [2] .

ودخلت أم سنان بنت خشمة بن خرشة المذحجية على معاوية تكلمه فى غلام من بنى ليث حبسه مروان . « فقال لها معاوية كيف قولك .

عزب الرقاد فمقلتى لا ترقد ... والليل يصدر بالهموم ويورد
يا آل مذحج لا مقام فشمروا ... أن العدو لآل أحمد يقصد
هذا على كالهلال تحفه ... وسط السماء من الكواكب أسعد
خير الخلائق وابن هم محمد ... أن يهدكم بالنور منه تهتدوا

فقال رجل من جلسائه وهى القائلة :

أما هلكت ـ أبا الحسين ـ فلم تزل ... بالحق تعرف هاديا مهديا
فأذهب عليك صلاة ربك ما دعت ... ـ فوق المصون ـ حمامة قريا
قد كنت — بعد محمد ـ خافا كما ... أوصى إليك بنا فكنت وفيا

---

١ ـ العقد الفريد ١ / ٢١٢ ـ ٢١٣ .
٢ ـ المصدر نفسه ص ٢١٣ ـ ٢١٤ .

Books.Rafed.net

قالت لسان صدق ، وقول نطق . وكان ـــ والله ـــ على أحب إلينا منك[١].
ودخلت ـــ على معاوية ـــ عكرشة بنت الأطرش بن رواحه متوكئه على عكاز .
، فسلمت عليه بالخلافة . ثم جلست . فقال لها معاوية الآن يا عكرشة صرت
ـــ عندك ـــ أمير المؤمنين ! ! قالت : نعم إذ لا على حى[٢] . ، فعبرت بذلك
عن الخسارة التى حلت بالمسلمين بعد مصرع الامام أحسن تعبير .

فقد مات على . فمات العدل معه . وباستطاعة معاوية ـــ ومن هم على شاكلته
أن يصبحوا أمراء للمؤمنين .

وسأل معاوية ـــ ذات يوم ـــ درامية الحجونية عن سبب حبها لعلى وبغضها
معاوية . فقالت . أو تعفينى ، قال لا أعفيك .

قالت أما إذا أبيت فانى أحببت علياً على عدله فى الرعية وقسمه بالسويه .
وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر وطلبتك ما ليس لك بحق . ووالیت
علياً على ما عقد له رسول الله من الولاء ، وحبه المساكين وإعظامه لاهل الدين .
وعاديتك على سفكك الدماء وجورك فى القضاء وحكمك بالهوى . .

فقال : هل لك من حاجة ؟ قالت أو تفعل إذا سألتك ؟ قال نعم .

قالت : تعطينى مئة ناقة فيها فحلها وراعيها .

قال : تصنعين بها ماذا ؟ قالت أغذوا بألبانها الصغار واستحيي بها الكبار
وأكتسب بها المكارم وأصلح بها بين العشائر . . . قال أما والله لو كان على حبا
ما أعطاك منها شيئاً !!

---

١ ـ العقد الفريد : ١/٢١٤ ـ ٢١٥ .

٢ ـ المصدر نفسه ص ٢١٥ ـ ٢١٦ .

Books.Rafed.net

قالت : لا والله ولا وبرة واحدة من مال المسلمين [١] .

إن هذه الحكايات ــ أن دلت على شيء ــ فإنما تدل على أن نفوس الناس أوعية تقبل الخير ــ على أسوء الفروض ــ كما تقبل الشر . فاذا ساد الشر فى المجتمع وتبناه حكام السوء اختفت الفضيلة وقل ناصرها . والعكس صحيح كذلك. وبما أن التاريخ البشرى بصورة عامة ، والتاريخ العربى الإسلامى بصورة خاصة قد غلبت على حكامه ــ باستثناء على بن أبى طالب ــ شهوة الحكم والمحافظة على المصالح الذاتية ــ بنسب متفاوتة ــ فلا عجب أن رأينا نفوس الرعايا قد طبعت على الشر والهبوط عن مستويات الأخلاق الرفيعة .

ولحكام الأمويين القدح المعلى فى هذا الشأن .

ولو اتيح لعلى بن أبى طالب أن يحكم العالم العربى ــ الإسلامى بعد وفاة الرسول مباشرة لكانت الأخلاق العربية ــ الإسلامية المنتشرة فى الوقت الحاضر ــ غير ما هى عليه الآن .

وفى هذه النقطة بالذات يظهر أثر الأمويين فى الخلق العربى ــ الإسلامى الدائم واضحا كالشمس فى رائعة النهار . « سأل رجل عليا ما بال المسلمين اختلفوا عليك ولم يختلفوا على أبى بكر وعمر ؟ فقال لأن أبا بكر وعمر كانا واليين على مثلى وأنا اليوم وال على مثلك [٢] . »

العصبية القبلية الجاهلية التى حاربها الإسلام : تمسك الأمويين بأمويتهم أولا

---

١ ــ العقد الفريد ١/٢١٦ ، ٢١٧

٢ ــ مقدمة ابن خلدون ، المطبعة التجارية ص ٢١١ . لعل الإمام قصد بذلك أن الجيل الإسلامى الذى عاش فى عهد أبى بكر وعمر ما زالت تكتنفه هيبة النبى وتهيمن على نفسه الأحكام التى كان الرسول سائراً ــ فى سياسته ــ وفقاً لمستلزماتها . أما الجيل الذى أراد أن يحكمه الإمام ــ فى ضوء القرآن وسيرة النبى ــ فقد فسدت طباعه أثناء خلافة عثمان .

Books.Rafed.net

وقبل كل شيء . واستغلوا جميع الروابط الممكنة لتثبيتها ودعمها . فكانت سياستهم مستندة على أمويتهم بالدرجة الأولى ، وعلى قرشيتهم بالدرجة الثانية ، وعلى عروبتهم بالدرجة الثالثة . وبهذا الأسلوب أسقطوا الموالى (وهم المسلمون غير العرب) من حسابهم ، وعاملوهم معاملة جاهلية يأباها الاسلام . على أنهم التزموا فى الجانب العربى — سياسة من والاهم من الأعراب وشاركهم فى المساهمة فى استئصال الأخلاق الاسلامية من نفوس الناس . وبما أن الأمويين لا يرتبطون بالموالى بروابط العشيرة والنسب أو وحدة المصالح المشتركة ، وبما أن الموالى وبخاصة الفرس قد ألفوا منذ عهد الامام على بن أبى طالب — المساواة مع العرب بحكم كونهم إسلاما — فقد راعهم بعد الحكم الأموى عن روح الاسلام فقاوموه[1] ولم يجد الأمويون بدآ من إثارة النزعة العربية الجاهلية ضد الموالى لاحباط محاولتهم الرامية إلى تطبيق مبادىء الاسلام على شئون الحياة . وفى هذا الجو الجديد زرعت بذور الشعوبية وانقسم المسلمون حولها ، وانشغل فريق من الكتاب والأدباء فى معركة كلامية حامية الوطيس حول مساوىء الشعوبية ومحاسنها . وكسب الأمويون ثمار ذلك . فقد ألهوا المسلمين من العرب والموالى بمشاكل جانبية — مازلنا نعانى بعض آثارها المحزنة إلى اليوم . فتخلص حكمهم الوثنى من الرقابة الشعبية بقدر ما تخلص من آثار الدين الحنيف . وإلى القارىء طرفا من ذلك الصراع الفكرى بين الموالى والعرب .

ذكر ابن عبد ربه [2] فى أن معاوية بن أبى سفيان استدعى الأحنف بن قيس ، وسمرة بن جندب وقال لهما : « إنى رأيت هذه الحمراء قد كثرت . وأراها قد

---

١ — ولعل ذلك يفسر لنا شدة تعلقهم بالإمام على وعلى حبهم الشديد له . ولعل ذلك الأمر نفسه يفسر لنا بغض الأمويين وأتباعهم للفرس . فقد تجسم بغضهم الإمام فشمل أنصاره ومحبيه .

٢ — ابن عبد ربه ، العقد الفريد ٢/٢٦٠ — ٢٦١ .

Books.Rafed.net

قطعت على السلف . وكأنى أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان . فقد رأيت أن أقتل شطراً وأدع شطراً لاقامة السوق وعمارة الطريق .

وروى : أن حمران ــ مولى عثمان بن عفان ــ عاتب عامر بن عبد القيس (المعروف بزهده ونسكه) فى موقفه من عثمان ، وكان عبدالله بن عامر (صاحب العراق) حاضراً . فأنكر عامر بن القيس ذلك . فقال له حمران : « لا كثر الله فينا مثلك . فقال له عامر بل كثر الله فينا مثلك . فقيل له أيدعو عليك وتدعو له ؟ قال نعم يكفون طرقنا ويخرزون خفافنا، ويحوكون ثيابنا . فاستوى ابن عامر جالساً ــ وكان متكئاً ــ فقال ما كنت أظنك تعرف هذا الباب لفضلك وزهادتك .

ومما يذكر عن نافع بن جبير أنه كان يسأل إذا مرت به جنازة فإذا قالوا قرشى قال : واقوماه ! وإذا قالوا عربى قال : وابلدتاه! ! وإذا قالوا مولى قال : هو مال الله يأخذ ما يشاء ، ويدع ما يشاء »[1] .

وروى الجاحظ : أن الحجاج بن يوسف الثقفى « أقبل على الموالى وقال : أنتم علوج عجم ، وقراؤكم أولى بكم ففرقهم وفض جمعهم كيف أحب ، وصيرهم كيف شاء ، ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التى وجهه إليها »[2].

وكتب التاريخ الإسلامى ، والأدب العربى تعج بالأخبار المتضمنة سوء معاملة الأمويين للموالى ، فقد امتهنوهم ، واستهانوا باحسابهم ، وأرهقوهم بالضرائب ، وفرضوا عليهم الجزية والخراج ، وضرائب كثيرة أخرى ، وأسقطوهم من العطاء فكان الجنود الموالى يقاتلون من دون عطاء ، أى أنهم عاملوهم ــ فى هذه الناحية ــ كما يعاملون المشركين والكفار ، وهو أمر يأباه الإسلام .

---

١ ــ المصدر نفسه ٢٦٢ .

٢ ــ المصدر نفسه ٢٦٢ .

Books.Rafed.net

وكانوا يقولون : لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة : حمار أو كلب أو مولى .

وكانوا : لا يكنونهم بالكنى ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب ، ولا يمشون فى الصف معهم ، ولا يقدمونهم فى الموكب . وإن حضروا طعاماً قاموا على رؤوسهم ، وإن أطعموا المولى ـــ لسنه وفضله وعلمه ـــ أجلسوه فى طريق الجنازلئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب ، ولايدعونهم يصلون على الجنائز إذا حضر أحد من العرب ، وإن كان الذى يحضر غريراً .

وكان الخاطب لا يخطب المرأة منهم إلى أبيها ولا إلى أخيها ، وإنما يخطبها إلى مواليها فإن رضى زوج ، وإلا فإن زوج الأب والأخ ـــ بغير رأى مواليه ـــ فسخ النكاح ، وإن كان قد دخل بها كان سفاحاً غير نكاح ، (١) .

وإذا أمعنا النظر فيما ذكرناه وجدناه خروجاً سافراً على مبادىء الإسلام ، واختراقاً واضحاً للقرآن والسيرة النبوية . جاء فى القرآن الكريم :

(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . ولكن الأمويين قد ساروا فى سياستهم العامة ـ فى هذه النقطة بالذات (كما ساروا فى غيرها) على أسس تتناقض هى وما نص عليه القرآن الكريم . فلم تقتصر سياستهم على مطاردة الأتقياء من المسلمين ـــ وحرمانهم من حقوقهم المشروعة ـــ بل تعدت ذلك إلى العناية بالمتمردين على أوامر الله . فقد أغدق الأمويين ـــ على هؤلاء ـــ المناصب والهبات .

وبما أن الامويين كانوا عارفين بكيفية مجيئهم للحكم ، وعدم مشروعية حكمهم من الناحية الدينية ـــ فقد ساروا فى ذلك بطريقة تنسجم هى وأسلوب مجيئهم للحكم من جهة وتعصم (من جهة أخرى) ملكهم من التصدع والانهيار . فلا غرو أن جعلوا المستهترين بالدين وبمصالح الناس مادة بناء ذلك الحكم .

---

١ ـ ابن عبد ربه « العقد الفريد » ٢/٢٦٠ ـ ٢٦١ إن كل ما ذكر خروج صارخ على مبادىء الاسلام .

Books.Rafed.net

ولو اعتمد الامويون على الاتقياء والمتدينين لكانوا كمن سعى إلى حتفه بظلفه .

ذكر أبو عمرو سفيان بن عبيد الله ، قال : قلت يا رسول الله قل لى قولا فى الاسلام لا أسأل عنه أحداً غيرك . فقال: قل آمنت بالله ثم استقم [1] . »

لقد أوجز الرسول ــ فى هذا القول المختصر ــ روح الإسلام بجانبيه العقائدى والأخلاقى . فالإيمان بالله ــ كما ذكرنا ــ يستلزم القيام بشعائره الدينية المعروفة . والاستقامة تتضمن السير وفق مستلزمات الأخلاق الإسلامية الى شرحناها .

فهل آمن الأمويون بالله ؟ ومن ثم استقاموا .

إن تاريخهم يشير إلى الإجابة بالنفى عن هذين السؤالين . وبقدر ما يتعلق الأمر بجانب الاستقامة يمكننا أن نلاحظ بعدهم عن الإسلام إذا وازنا موقفهم من الموالى ــ الذى سنشرحه مفصلا ــ بموقف رسول الله .

ذكر البخارى[2] بإسناده عن عائذ بن عمرو : « أن أبى سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال فى نفر . فقالوا : ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها!!

قال : فقال أبو بكر أتقولون هذا الشيخ قريشى وسيدهم ؟ فأتى النبى فأخبره . فقال يا أبا بكر لعلك أغضبتهم ؟ لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت الله . فأتاهم أبو بكر فقال يا إخوتنا أغضبتكم ؟ قالوا : لا . يغفر الله لك . »

وقال عمر بن الخطاب ــ قبيل وفاته ــ « لو كان سالم ــ مولى حذيفة ــ حيا لا ستخلفته وقلت لربى إن سألنى أنى سمعت نبيك يقول إن سالماً كان شديد الحب لله [3] . »

---

١ ــ كتاب الفتوحات الوهبية للشيخ ابراهيم المالكى ص ١٩٦ .

٢ ــ صحيح البخارى ٢/٣٦٢ .

٣ ــ ابن الاثير « الكامل فى التاريخ » ٣/٣٤ .

Books.Rafed.net

١١٦ ـــــــ

فسلمان الفارسى بنظر الإسلام أفضل من معاوية وأبيه العربيين . القرشيين . ذكر المقريزى [١] « إن أبا بكر كلم أبا سفيان فرفع صوته . فقال أبو قحافة : أخفض صوتك يا أبا بكر عن ابن حرب . فقال أبو بكر يا أبا قحافة : إن الله بنى فى الإسلام بيوتا كانت غير مبنية . وهدم بيوتا كانت فى الجاهلية مبنية . وبيت أبى سفيان مما هدم »

فموقف الأمويين من الموالى إذن موقف لا يجيزه الاسلام من الناحية المبدئية العامة . وتتجسم بشاعة ذلك الموقف إذا تذكرنا أن قسماً كبيراً من الموالى — وبخاصة الفرس منهم — كانوا من أفاضل المسلمين الأمر الذى حمل ابن خلدون على القول بأن حملة العلم فى الاسلام أكثرهم العجم .

قال ابن خلدون : « من الغريب الواقع أن حملة العلم فى الاسلام أكثرهم العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا فى القليل النادر وإن كان منهم العربى فى نسبته ومرباه ومشيخته مع أن اللغة عربية وصاحب شريعتها عربى ... فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسى من بعده والزجاج من بعدهما ؛ وكلهم عجم فى أنسابهم . وكذا حملة الحديث الذين حفظوا عن أهل الاسلام أكثرهم عجم ..

وكان علماء أصول الفقه كلهم عجماً ... وكذا حملة الكلام . وكذا أكثر المفسرين . ولم يقم بحفظه وتدوينه إلا الأعاجم ... وظهر مصداق قول النبى: « لو تعلق العلم بأكناف السماء لنا له قوم من أهل فارس [٢] » وأنت ترى أن الفرس — وهم الذين تطلق عليهم كلمة الموالى فى الأعم الأغلب — قد برعوا فى شتى صنوف المعرفة العربية الاسلامية .

---

١ — النزاع والتخاصم . ١٩ .

٢ — مقدمة ابن خلدون : ٥٤٣ — ٥٤٤ .

Books.Rafed.net

ومن الغريب أن ينتزع الفرس من العرب ـ بالإضافة إلى علم الكلام وأصول الفقه والحديث وتفسير القرآن ـ قواعد اللغة العربية ، وهو أمر بعيد عن متناول المسلم غير العربى كما هو معروف .

أما براعة الفرس فى الفقه فقد بلغت حد الإعجاز فقد روى عن أبى ليلى أنه قال : « قال لى عيسى بن موسى ـ وكان ديانا شديد العصبية .

من كان فقيه البصرة ؟ قلت الحسن بن أبى الحسن .

قال ثم من ؟ قلت محمد بن سيرين .

قال فما هما ؟ قلت مواليان . قال فمن كان فقيه مكة ؟ قلت : عطاء بن أبى رباح ومجاهد وسعيد بن جبير وسليمان بن يسار .

قال فما هؤلاء ؟ قلت : مـــوالى ، قال فمن فقهاء المدينة ؟ قلت يزيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر ، ونافع بن أبى نجيح .

قال فما هؤلاء ؟ قلت موالى فتغير لونه ـ ثم قال : فمن أفقه أهل قباء ؟ قلت ربيعة الرأى ، وابن أبى الزناد قال : فماكانا ؟ قلت من الموالى . فاربد وجهه . ثم قال : فمن كان فقيه اليمن ؟ قلت طاووس وابنه وابن منبه .

قال فما هؤلاء ؟ قلت من الموالى . فانتفخت أوداجه فانتصب قاعدا . ثم قال : فمن كان فقيه الشام ؟ قلت مكحول . قال فماكان مكحول هذا ؟ قلت مولى .

قال فتنفس الصعداء . ثم قال : فمن كان فقيه الكوفة ؟ قال : فوالله لولا خوفه لقلت الحكم بن عينية ، وعمار بن أبى سليمان . ولكنى رأيت فيه الشر فقلت : إبرهيم والشعبى . قال فماكانا ؟ قلت عربيان . قال الله اكبر . وسكن جأشه[1] . »

---

١ ـ ابن عبد ربه : « العقد الفريد » ٢ ص ٢٦٢ . كان الأولى بعيسى بن موسى أن يرتاح لبروز الفرس فى الفقه بجانب إخوانهم العرب ومساهمتهم فى خدمة الدين الحنيف .

Books.Rafed.net

هؤلاء هم العجم الذين كان دعاة الأمويين ــ ومازلوا ــ ينتقصونهم فى دينهم وفى أحسابهم وفى خلقهم .

ومن المحزن حقا أن تلصق بهؤلاء المسلمين صنوف التهم ومختلف المثالب والموبقات حتى أصبح القول :

« بأن الفرس دخلوا الإسلام لهدمه » من الأقوال التى يرددها كثير من الناس دون تثبت أو انصاف .

وقد أسرفت كتب التاريخ المدرسى عندنا ــ فى هذه القضية ــ غاية الاسراف.

فمصرع الخليفة الثانى مثلا : كان سببه ــ بنظر مؤلفيها ــ مؤامرة فارسية لهـــدم الإسلام ، وسقوط الدولتين الأموية ، والعباسية ، والنزاع بين المنصور وأبى مسلم الخراسانى ، وبين الرشيد والبرامكة ، وبين الأمين والمأمون الخ ..

كلها أمثلة من هذا القبيل . وقد بلغ بعض الكتاب المعاصرين[1] فى هذا الاتهام ذروته حين نسب للفرس مصرع الإمام على بن أبى طالب مع علمه بحبهم له ــ لعدالته وتقواه ــ .

ومن يدرى فلعل حب الفرس لعلى هو الذى جعل هؤلاء الكتاب يبغضونهم ويكيلون لهم التهم دون حساب .

ولايخفى ما فى هذه المزاعم والأباطيل من تجن على التاريخ وتبسيط لحوادثه .

ومما يلفت النظر إن أولئك الكتاب يميزون أحيانا بين الفرس على أسس أخرى غير فارسيتهم . فيحترمون بعضهم إلى حد العبادة ويمقتون بعضا آخر إلى حد الكفر.

---

١ ــ الدكتور بديع شريف « الصراع بين الموالى والعرب » دار الكتاب العربى بمصر ، ١٩٥٤ ص ٣٢ ــ ٣٣ .

Books.Rafed.net

ويجرى هذا المجرى : أن أولئك الكتاب « العرب » كثيرا ما يعتبرون غير العرب « عربا » وبالعكس من الناحية « القومية » .

لقد مر بنا القول بأن الموالى قد برعوا فى العلوم الإسلامية وتفوقوا فيها على العرب . ترى لماذا برع الموالى فى إتقان العلوم الإسلامية ؟ وتخلف عنهم العرب؟

هل يعود السبب فى ذلك إلى اختلاف فى وراثاتهم الجسمية والعقلية ؟

أم أنه يرجع إلى عوامل بيئية صرفة ؟

هل أشتل الامويون العرب فى الحروب والمؤامرات السياسية فصرفوهم عن العلم ؟ فخلا الجو العلمى للموالى ؟

وهل شعر الموالى بضرورة تجنب الاشتراك فى السياسة الأموية فانصرفوا بكليتهم إلى العلم ؟

إن الاجابة بالإثبات عن السؤال الرابع وبالنفى عن السؤال الثالث تعتبر من أوليات العلم الحديث — وبخاصة علم النفس والاجتماع — .

فلم يبرع الموالى فى الجوانب العلمية لأنهم موال بل برعوا فيها لانصرافهم لها دون العرب .

وقد أدى انصراف الموالى إلى البحث والتتبع فى العلوم الإسلامية إلى اختلاف فى تفسير النصوص الموجودة فى القـــرآن والحديث وبالتالى إلى ظهور مسائل اجتهادية كثيرة أبعدت المسلمين عن بعضهم بعضا .

وهذه ظاهرة لا ينبغى أن تثير الدهشة أو الاستغراب . فإن من مستلزمات البحث الحر أنه يؤدى إلى تشعب الدراسة واختلاف فى وجهات النظر . ويظهر ذلك فى شتى صنوف المعرفة الإنسانية ، الطبيعية منها والاجتماعية مع اختلاف فى سعة ذلك الاختلاف » .

Books.Rafed.net

ومن الطريف أن ننبه القارىء إلى أن آينشتين العالم الفيزيائى المعروف قدأطلق على نظرياته العلمية اسم « النسبية » للتعبير عن الاختلاف الذى أشرنا إليه .فاختلاف وجهات النظر بين الباحثين إذن أمر لابد من حدوثه ، وأنه يؤدى — فى المادة — إلى ازدهار المعرفة الإنسانية ويصدق ما ذكرناه على الفقه كما يصدق على ضروب المعرفة الأخرى ، مع هذا الفارق الكبير : هو أن الاجتهاد — فى مجال الفقه — يجب أن يسير فى نطاق الدين الإسلامى وفى إطار القرآن وسنة الرسول .

فهل يجوز إذن أن يعتبر انصراف الموالى — للجوانب العلمية الفقهية — وما رافق ذلك من تعدد فى الرأى واختلاف فى وجهات النظر — هدما للإسلام ؟

وإذا لم يكن الأمر كذلك فهل بالإمكان اعتبار سياسة الامويين — تجاه الموالى وتجاه العرب الذين طالبوا الامويين بضرورة السير وفق مستلزمات الدين — هدما للإسلام ؟

إننا لا نشك فى أن القـــارى المنصف يشاركنا الإجابة بالإيجاب عن هذا السؤال .

أما قضية المفاضلة بالأحساب فيلخص رأى الموالى فى ردهم على ابن قتيبة . ذكر ابن عبد ربه[1] إن الموالى يقولون : « إننا نحن لاننكر تباين الناس ولاتفاضلهم ولا السيد منهم والمسود والشريف والمشروف . ولكننا نزعم أن تفاضل الناس — فيما بينهم — هو ليس بآبائهم ولا بأحسابهم ولكنه بأفعالهم وأخلاقهم وشرف أنفسهم وبعد هممهم .

ألا ترى إنه من كان دنىء الهمة ساقط المروءة لم يشرف وإن كان من هاشم فى ذؤابتها !! . إنما الكريم من كرمت أفعاله والشريف من شرفت همته . »

---

١ — العقد الفريد : ٢/٢٥٨ — ٢٥٩

Books.Rafed.net

وقد جعل الموالى الدين مقياسا لاخلاق الناس وميزانا لرفع بعضهم على بعض وأساسا لحضد شوكة الجاهلية عند الأمويين وامشاجهم من الاعراب . فذكروا — على ما يقول الجاحظ[1] : « إن العجم حين كان فيهم الملك والنبوة كانوا : أشرف من العرب ، ولما حول ذلك إلى العرب صارت العرب أشرف منهم .

فنحن معاشر الموالى — بقديمنا من العجم — أشرف من العرب . والحديث — الذى صار لنا فى العرب — أشرف من العجم . وللعرب الجديد دون القديم . ولنا خصلتان وافرتان جميعا .

وصاحب الخصلتين أفضل من صاحب الخصلة الواحدة . »

ومهما يكن من شىء فقد أوقد الامويون نار البغضاء بين المسلمين — العرب والموالى — على رغم أنف الإســـلام . فطعن كل منهما فى نسب صاحبه وفى دينه وأخلاقه .

فظهرت الشعوبية من جهة وبرز الرد عليها من جهة أخرى .

واحتدمت المعارك الكلامية بين الطرفين ، وتفنن كل جانب بلصق التهم بخصمه دون حساب .

وانتشرت كتب المثالب فى كثير من الأرجاء .

وإلى القارىء طرفا من هذا الوجه من وجوه الحياة الثقافية للمسلمين بعد مصرع الإمام على بن أبى طالب . ذكر الجاحظ ما نصه [2] :

ونبدأ على اسم الله بذكر مذهب الشعوبية وبمطاعنهم على خطباء العرب بأخذ

---

١ ـ رسائل الجاحظ ص ٢٩٠

٢ ـ البيان والتبيين ٣/٤ـ١٣

Books.Rafed.net

المخضرة عند مناقلة الكلام ومساجلة الخصوم بالموزون المقفى والمنثور الذى لم يقف، وبالارجاز عن الممتدح وعند مجافاة الخصم وساعة المشاولة .

وفى نفس المجادلة والمجاولة . وكذلك الإسجاع عند المنافرة والمفاخرة واستعمال المنثور فى خطب الحمالة وفى مقامات الصلح وسل السخيمة .

والقول عند المعاندة ، والاتكاء على أطراف القسى وخد وجه الأرض بها ، واعتمادها عليها إذا استنفرت فى كلامها وأفنت يوم الحفل فى مذاهبها . ولزومها العمائم فى أيام الجموع ، وأخذها المحاضر فى كل حال ، وجلوسها فى خطب النكاح وقيامها فى خطب الصلح . .

وخطبهم على رواحلهم فى المواسم العظام والمجامع الكبار .

والتماسح بالأكف والتحالف على النار . والتعاقد على الملح ، وأخذ المؤكد واليمين الغموس(١)

وقالت الشعوبية : القضيب للإيقاع والقناة للغار والعصا للقتال والقوس للرمى. وليس بين الكلام وبين العصا سبب ، ولا بينه وبين القوس نسب . وهما إلى أن يشغلا العقل ويصرفا الخواطر ويعترضا الذهن أشبه .

وليس فى حملها ما يشحذ الذهن ولا فى الإشارة بها ما يجلب اللفظ .

والخطابة شىء فى جميع الأمم وبكل الأجيال إليه أعظم الحاجة . ولكنكم

---

١ ــ المخضرة: العصا. المتح : السقى من البئر بالدلاء . المجاثاة: هى أن يجثو الخصمان على الركب أمام بعضهما ثم يأخذان فى صنوف الجدل . المشاولة: تفرق الكلمة وأن يتعرض كل خصم لخصمه بالسب . الحمالة: الدية يحملها القاتل إلى أهل المقتول سهل السخيمة: نزع الضغينة الحد : الشق . استنفر مضى مسرعا فى قوله . افتنت أخذت فى فنون القول .

Books.Rafed.net

كنتم رعاة بين الإبل والغنم فحملتم القنا فى الحضر بفضل عادتكم لحملها فى السفر .
وحملتموها فى المدر بفضل عادتكم لحملها فى الوبر .

وحملتموها فى السلم بفضل عادتكم لحملها فى الحرب . وبطول اعتيادكم لمخاطبة الإبل جف كلامكم وغلظت مخارج أصواتكم حتى كأنكم إنما تخاطبون الصمان إذا كلمتم الجلساء . وإنما جـــل قتالكم بالعصى ، ورماحكم من مران وأسنتكم من قرون البقر .

وتفخرون بطول القناة ولا تعرفون الطعن والمطارد . وإنما القنا الطوال للرحالة والقصار للفرسان والمطارد لصيد الوحش . وتفخرون بطـــول الرمح وقصر السيف .

فلو كان المفتخر بقصر السيف الراجل — دون الفارس — لكان الفارس يفخر بطول السيف ، وإن كان الطول فى الرمح إنما صار صوابا لأنه ينال به البعيد ولا يفوته العدو ، ولأن ذلك يدل على شدة أسر الفارس وقوة أيده . فكذلك السيف العريض الطويل .

وكنتم تتخذون للقنا زجا وسنانا حين لم يقبض الفارس منكم على أصل قناته .

وكنتم لا تقاتلون بالليل ولا تعرفون البيات ولا الكمين[٢] . »

ثم ينتقل الجاحظ — بعد أن ذكر مطاعن الشعوبية على العرب — إلى الرد عليهم . فيقول فى الكتاب الآنف الذكر[٢] :

---

١ — المطارد جمع مطرد وهو الرمح القصير . الزج حديدة مدببة تركب فى أسفل الرمح . البيات الايقاع بالعدو ليلا . الصمان جمع أصم . المران نوع من الشجر .

٢ — البيان والتبين ٣/١٤ — ٢٨

Books.Rafed.net

قلنا ليس لكم فيما ذكرتم دليل على أن العرب لا تقاتل بالليل .

قال سعد بن مالك فى قتل كعب ...

وليلة تبـــع وخميس سعد أتونا ـ بعد ما نمنا ـ دبيبا
فـــلم نهدأ لبأسهم ولكن ركبنا حد كوكبهم ركوبا
بضرب تفلق الهامات منه وطعن يفصل الحلق الصليبا

وأما قولهم أن العرب لايعرفون الكمين فقد قال أبو قيس بن الأسلت :

وأحرزنا المغانم واستبحنا حمى الأعداء ، والله المعين
بغير خلابة وبغير مكر مجاهرة ولم يخبأ كمين

وأما ما ذكروا فى شأن رماح العرب فليس الأمر فى ذلك على ما يتوهمون وللرماح طبقات : فمنها : النيزك ، ومنها المربوع ومنها المخموس ومنها التأم ومنها الخطل ...

وجملة القول إنا لانعرف الخطب إلا للعرب والفرس . وفى الفرس خطباء إلا أن كل كلام للفرس وكل معنى للعجم فإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد وخلوة وعن مشاورة ومعاونة وعن طول التفكير ودراسة الكتب . وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال .

والدليل على أن أخذ العصا مأخوذ من أصل كريم ومن معدن شريف اتخاذ سليمان بن داود العصا لخطبته .

وقد جمع الله لموسى فى عصاه من البرهانات العظام. ألم تر أن السحرة لم يتكلفوا تغليظ الناس والتمويه عليهم إلا بالعصا ! ولا عاوضهم موسى إلا بالعصا ! ! ..

Books.Rafed.net

قال يزيد بن مفرغ :

العبـد يقرع بالعصا والحر تكفيه الاشارة

ومما يدخل فى باب الانتفاع بالعصا أن عامر بن الظرب العدوانى حكم العرب فى الجاهلية . ولما أسن واعتراه النسيان أمر بنته أن تقرع بالعصا إذا هو فه عن الحكم وجار عن القـد .

وذكر العصا يجرى عندهم فى معان كثيرة . تقول العرب : العصا من العصية . ويقال أن فلان شق عصا المسلمين .

وقال العتابى فى مدح بعض الخلفاء :

إمـام له كف تضم بنـــانهـا عصا الدين ممنوع من البرى عودها
وعـين محيط بالبرية جفنـــها سواء عليه قربهـا وبعيدها

وقال المضرس الاسدى :

وألقت عصاها واستقرت بهاالنوى كما قر عينـا بالاياب المسافر ،

وذكر ابن خلدون[1] ــ وهو غير شعوبى ــ آراء فى العرب لا تختلف من حيث الأساس عن آراء الشعوبيين. فاتهم العرب بأنهم لا يتغلبون إلا على البسائط. ، وذلك أنهم بطبيعة التوحش ــ الذى فيهم ــ أهل إنتهاب وعبث . ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر .

ويفرون إلى منتجعهم بالقفر . ولا يذهبون إلى المزاحفة والمحاربة إلا إذا دفعوا بذلك عن أنفسهم . والقبائل الممتنعة عليهم بأوعار الجبال بمنجاة من عبثهم وفسادهم .

---

١ ــ مقدمة ابن خلدون ص ١٤٩ ــ ١٥٢ .

Books.Rafed.net

وأن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الفساد .

والسبب فى ذلك : أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم فصار لهم خلقا وجبله وكان عندهم ملذوذا لما فيه من خروج عل ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة .

وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له . فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب وذلك مناقض للسكون الذى به العمران ومناف له .

فالحجر مثلا إنما حاجتهم إليه لنصبه أثافى القدر . فينقلونه من المبانى ويخربونها عليه ويعدونه لذلك .

والخشب أيضا إنما حاجتهم إليه ليعمروا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم . فيخربون السقف عليه . لذلك فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذى هو أصل العمران . هذا فى حالهم على العموم .

وأيضا فى طبيعتهم انتهاب ما فى أيدى الناس ، وأن رزقهم فى ضلال رماحهم. وليس عندهم فى أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه . بل كلما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه .

وأيضا فأنهم ليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن المفاسد ودفاع بعض عن بعض إنما هم يأخذونه من أموال الناس نهبا أو غرامة . فإذا توصلوا إلى ذات وحصلوا عليه أعرضوا عما بعده من تسديد أحوالهم والنظر فى مصالحهم وقهر بعضهم عن أغراض المفاسد .

هذا إلى أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بعصبية دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة . والسبب فى ذلك أنهم — لخلق التوحش فيهم — أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة فى الرئاسة . فقلما تجتمع أهواؤهم .

Books.Rafed.net

فإذا كان الدين بالنبوءة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم ، وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم ...

فإذا كان فيهم النبى أو الولى الذى يبعثهم على القيام بأمر الله يذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق تم اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك . وهم مع ذلك أسرع الناس قبولا للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق إلا ماكان من خلق التوحش القريب المعالجة المتهيء لقبول الخير . — يضاف إلى ذلك — أن العرب — أبعد الأمم عن سياسة الملك والسبب فى ذلك أنهم أكثر بداوة من سائر الأمم وأبعد مجالا فى القفر وأغنى عن حاجات التلول لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش . فاستغنوا عن غيرهم . فصعب انقياد بعضهم لبعض لإيلافهم ذلك وللتوحش .

ورئيسهم محتاج إليهم غالبا للعصبية التى بها المدافعة.

فكان مضطرا إلى إحسان ملكتهم وترك مراغمتهم لئلا يختل عليه شأن عصبيته فيكون فيها هلاكه وهلاكهم ...

فإن من طبيعتهم كما قدمنا أخذ ما فى أيدى الناس خاصة والتجافى عما سوى ذلك من الأحكام بينهم ودفاع بعضهم عن بعض .

فإذا ملكوا أمة من الأمم جعلوا غاية ملكهم الانتفاع بأخذ ما فى أيديهم وتركوا ما سوى ذلك من الأحكام بينهم ...

فبعدت طباع العرب لذلك كله عن سياسة الملك ، وإنما يصيرون إليها بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصبغة دينية تمحو ذلك منهم وتجعل الوازع لهم من أنفسهم . »

وإذا أمعنا النظر فى الفقرات التى اقتطفناها من الشعوبيين وابن خلدون أمكننا

Books.Rafed.net

أن نقول — أن ما ذكره الشعوبيون وابن خلدون من مطاعن على العرب أمر ناتج عن طبيعة بيئة العرب لا عن عروبتهم .

وذلك لأن الأوضاع الطبيعية والإجتماعية التى نشأ فيها العرب قد أكسبتهم الصفات التى اتخذها الشعوبيون وابن خلدون مطاعن عليهم .

ودليلنا على ذلك : إن جميع الأمم ، التى تتعرض لظروف طبيعية واجتماعية مماثلة ، تكتسب عادات وتقاليد مماثلة لعادات العرب وتقاليدهم . هذا من جهة .

ومن جهة ثانية فإن العرب أنفسهم إذا اختلفت بيئتهم المعاشية يكتسبون عادات وتقاليد جديدة منبثقة عن محيطهم الجديد وملائمة له .

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن الشعوبيين — فى الفقرات التى ذكرناها — قد ذهبوا إلى ما ذهبنا إليه من حيث الأساس وإن لم يذكروه بصراحة ووضوح .

فقد اعتبروا مآخذهم على العرب ناتجة عن بيئتهم المعاشية .

ولكن فاتهم، مع هذا ، أن يتذكروا أنهم بحكم كونهم عاشوا فى بيئة مختلفة عن بيئة العرب قد اكتسبوا عادات وتقاليد تختلف عن تلك التى اتصف بها العرب . فنتج عن ذلك أنهم أخطأوا باتخاذهم عاداتهم وتقاليدهم مقياسا للحكم على تقاليد العرب وعاداتهم .

فاعتبروا اختلاف عادات العرب وتقاليدهم عن عاداتهم وتقاليدهم شذوذا وبالتالى نقصا عند العرب . ويصدق الشىء نفسه على العرب فى ردهم على خصومهم

أما حجج الجاحظ — فى تفنيد آراء الشعوبيين — ، وبخاصة دفاعه عن العصا ، فهزيلة ومضحكة .

Books.Rafed.net

١٣٠ ـــــــ

وســـار الأمويون على نقيض ذلك . فخسروا دينهم ـ كما سنرى ـ كما خسروا دنياهم كذلك .

دنياهم فى جوانبها المثلى من الناحية الخلقية الإنسانية . وقد عبر عن خسران الأمويين دينهم ودنياهم ـ أحدهم ـ أحسن تعبير حين قال :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

وفى معرض التحدث عن جوانب التعارض بين الدين والحياة : ذكر القرآن فى سورة البقرة « أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون » .

وجاء فى سورة الاعراف : « الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا . فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون . »

وجاء فى سورة يونس : « إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون. أولئك مأواهم النار بما كسبوا ....».

وجاء فى سورة هود : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون . »

وأعيد المعنى السابق نفسه ـ حيث الأساس ـ فى سورة الحديد :

« اعلموا أنما الحياة الدنيا لهو ولعب وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد . »

---

١ — مقدمة ابن خلدون ص ٣٠٦ .

Books.Rafed.net

لقد أعطى الأمويون ، على ما يذكر ابن خلدون[1]: « الملك والترف حقه وانغمسوا فى الدنيا وباطلها ونبذوا الدين وراءهم ظهريا . » وكان ذلك برأيه السبب فى سلب الله عزهم وتقويض ملكهم . وقـــد استشهد ابن خلدون على ذلك بقصة عبد الله بن مروان ـ مع ملك النوبة ـ عند هروبه من السفاح :

« قال عبد الله بن مروان أقمت مليا . ثم أتانى ملكهم فقعدعلى الأرض ، وقد بسطت لى فرش ذات قيمة . فقلت :

ما منعك عن القعود على ثيابنا . فقال : إنى ملك وحق لكل ملكأن يتواضع. ثم قال لى :

لم تشربون الخمر وهى محرمة عليكم فى كتابكم ؟ فقلت اجتراً على ذلك عبيدنا واتباعنا . قال :

فلم تلبسون الديباج والذهب والحرير وهو محرم عليكم فى كتابكم ؟ قلت : ذهب منا الملك وانتصرنا بقوم من العجم دخـــلوا فى ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا .

فأطرق ينكث بيده فى الأرض ويقول: عبيدنا واتباعنا وأعاجم دخلوا فى ديننا . ثم رفع رأسه إلى وقال : ليس الأمر كما ذكرت . بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم وأتيتم ما عنه نهيتم وظلمتم فيما ملكتم.[1]»

فالتحلل من الدين ـ وهو الجـــانب الإيجابى للتكالب على الملذات الدنيوية الرخيصة ـ إذن هو الطابع العام للأخلاق الأموية . وقد اتخذ ذلك التحلل أشكالا عديدة نجملها فيما يلى :

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٠٧.

Books.Rafed.net

١ ـ قتل النفس

قتل النفس البشرية بشكل لا يجيزه الإسلام جاء فى سورة آل عمران « إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم. أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين . » وجاء فى سورة النساء « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه[1] ولعنه وأعد له عذاباً أليماً. » وجاء فى سورة الانعام:

« قل تعالوا أتل عليكم ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً ...

ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق . ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل أنه كان منصوراً . » وفى سورة الفرقان .

« والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون . ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيها مهانا . » وذكر مسلم بن الحجاج[2] عن أنس بن مالك بأسانيده المختلفة فى الكبائر « قال الشرك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس وقول الزور. » والتاريخ الأموى ـ كما سنرى ـ يعج بالفحش ، وقتل النفس بغير حق ، وبالظلم ، ونكث العهد ، وقول الزور وغيرها من الكبائر .

لقد كان السير وفق ما حرم الله ـ من الكبائر والموبقات ـ هو القاعدة العامة للأسرة الأموية كلمـــا كان ذلك السير بنظرهم ـ وسيلة من وسائل تثبيت حكمهم الممقوت .

---

(١) يلاحظ أن الله لعن هؤلاء فأوجب بذلك على المسلمين لعنهم وقد ورد ذلك فى أكثر من موضع فى القرآن، راجع سورة النساء ـ فى موضعين ـ، وسورة المائدة، وهود ـ فى موضعين وسورة الحجر وسورة (ص) ، وسورة محمد .

(٢) صحيح مسلم : ١/٤٩ .

Books.Rafed.net

ولم يلتزم الأمويون ببعض مظاهر الدين إلا حين استلزمت مصالحهم الأموية ذلك. وبقدر ما يتعلق الأمر بقتل النفس التى حرم الله — إلا بالحق — فإن فى تاريخهم من مثلة على ذلك الشىء الكثير.

فقد ذهبت أرواح آلاف من المسلمين ضحايا غدرهم وعدوانهم . ولم يسجل التاريخ الإسلامى — على ما فيه من حوادث كثيرة من هذا القبيل — إلا جزءاً يسيرا مما ارتكبوه فى هذا للباب .

وهنا تتوارد للذهن مأساة حجر بن عدى ، ومصرع الحسين بن على ، ومقتل مصعب وعبد الله ابنى الزبير ، واضحة للعيان .

هذا سوى مئات المسلمين الذين فتك بهم بسر بن أبى أرطاة كما رأينا .

ترى لماذا قتل الأمويون هؤلاء ؟ لأنهم ثاروا على ظلم الأمويين ؟

هل الثورة على الظلم خارجة عن نطاق الإسلام ؟

هل يجيز الإسلام موبقات الأمويين ؟

هل الحكم الأموى متفق مع القرآن وسنة الرسول ؟

ما حق الأمويين فى الإستيلاء على مقاليد الحكم فى البلاد الإسلامية ؟

هل جاء الأمويون للحكم بأسلوب يجيزه الإسلام ؟

هل يبرر الإسلام وراثة الحكم فى الأسرة الأموية خلفا عن سلف ؟

هل يعتبر قتل النفس — التى حرم الله — حقاً

إذا كانت تلك النفس تدعو الناس إلى اتباع الحق؟ وتحاسب السلطان على موبقاته ؟ تلك أسئلة تعتبر الإجابة عنها فى إدانة الأمويين من أسهل الأمور .

Books.Rafed.net

٢ — شرب الخمر

كان ولع الأمويين شديدا بتعاطى شرب الخمر ، وما يتصل به من خلاعة وتبذل وغناء .

والخمر — كما لايخفى — محرمة من الناحية الشرعية . جاء فى سورة المائدة :

« يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر ... رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . »

ولم يكتف الأمويون بشرب الخمر بل أسرفوا وأدمنوا وأطلقوا لأنفسهم الشريرة العنان فى هذ الضرب من ضروب العبث وما يتصل به من موبقات .

وكان ملوكهم — فى الشام والأندلس « باستثناء عمر بن عبد العزيز » يكثرون من شربه حتى بلغ بعضهم فى شربه حدا يفوق الوصف .

فيزيد بن معاوية كان مدمنا ، وكان لا يمسى إلا سكران ولا يصبح إلا مخموراً .

وكان عبد الملك بن مروان يسكر فى كل شهر مرة حتى لا يعقـــل فى السماء هو أو فى الماء .

وكان الوليد بن عبد الملك يشرب يوما ويدع يوما .

وكان سليمان بن عبد الملك يشرب فى كل ثلاث ليال ليلة .

وكان هشام يسكر فى كل جمعة .

وكان يزيد بن الوليد والوليد بن يزيد يدمنان اللهو والشرب .

فأما يزيد بن الوليد فكان — دهره — بين حالين : سكر وخمار . ولا يوجد أبداً إلا ومعه إحدى هاتين .

Books.Rafed.net

وكان مروان بن محمد يشرب ليلة الثلاثاء وليلة السبت[١] . »

وللخمر كما لا يخفى مضار يتعدى أثرها شخص من يتعاطاها فينتظم الآخرين من ذوى العلاقة ــ من طرف قريب أو بعيد ، وبصورة مباشرة . ويتسع مجال ذلك الضرر باتساع مجال علاقات ذلك الشخص بغيره من الناس .

فكيف به إذا كان « أميراً للمؤمنين » و « خليفة للمسلمين »!!!

لقد مر بنا القول أن من ملازمات الخمر الغناء والتبذل والخلاعة . والملوك السابقين ــ على يحدثنا الجاحظ ــ : تقاليد خاصة فى هذا الباب .

غير أن الأمويين قد أدخلوا على بعضها تحويراً استلزمته طبيعة استهتارهم بالدين وبالأخلاق . فمن أخلاق الملك عند الشرب : « أن يجعل ندماءه طبقات ومراتب . وأن يخص ويعم ويقرب ويباعد ويرفع ويضع ... وليس من حق الملك أن يبرح مجلسه إلا لقضاء حاجة ... وليس له أن يختار كمية مايشرب ولا كيفيتها . إنما هذا إلى الملك ... فلما ملك يزيد بن عبد الملك ساوى بين الطبقة العليا والسفلى من الندماء وأفسد أقسام المراتب . . . وغلب عليه اللهو .. وهو أول من شتم فى وجهه من الخلفاء على جهة الهزل والسخف[٢] . »

ومن المحزن حقا أن يشجع « خليفة المسلمين » المساواة فى التبذل والدعارة ويمنعها فى المعاملة وتطبيق أسس الشريعة السمحاء . فلم يساو « الخليفة » بين المسلمين فى العطاء ، ولكنه ساوى بين ندمائه فى الموبقات ليرفع عن نفسه حواجز التبذل والاستهتار .

وروى الجاحظ كذلك ــ فى معرض الموازنة بين تبذل الأمويين بالنسبة

---

١ ــ الجاحظ « التاج فى أخلاق الملوك » ص ١٥١ ــ ١٥٤

٢ ــ المصدر نفسه » ص ٢١ ــ ٣٠.

Books.Rafed.net

لبعضهم — أنه سأل اسحق بن ابراهيم فيما إذا كان ملوك بنى أمية يظهرون للندماء والمغنين فقال له اسحق : « أما معاوية بن أبى سفيان ، ومروان بن الحكم ، وعبد الملك بن مروان وسليمان وهشام ، ومروان بن محمد فكان بينهم وبين الندماء ستارة .

وكان لايظهر أحد من الندماء على مايفعله الخليفة إذا طرب المغنى والتذ حتى ينقلب ويمشى ويحرك كتفيه ويرقص ويتجرد حتى لا يراه إلا خواص جواريه ...

وأما الباقون — من خلفاء بنى أمية — فلم يكونوا يتحاشون أن يرقصوا ويتجردوا ، ويحضروا عراة بحضرة الندماء والمغنين .

وعلى ذلك لم يكن أحد منهم فى مثل حال يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد فى المجون والرفث بحضرة الندماء والتجرد ما يباليان ما صنعا[1] »

هذا نموذج من تبذل الأمويين فى أخلاقهم وفى دينهم — وهو شىء يعجه — دون شك — الذوق السليم ويأباه الخلق الرفيع ولايجيزه الإسلام . هذا إذا كان المتبذل من عامة الناس .

فكيف به إذا كان « خليفة المسلمين » و « أمير المؤمنين » ونائب رسول الله فى تطبيق مبادىء الدين على شئون الحياة !!!

لقد انغمس الأمويون — باستثناء عمر بن عبد العزيز — كما ذكرنا بالموبقات إلى الأذقان ، ومع ذلك فقد كان يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد أكثرهم تبذلا — على ما تروى كتب التاريخ والأدب — . وحديث الأول منهما مع سلامة وحبابة معروف لدى الكثيرين .

---

١ — الجاحظ « التاج فى أخلاق الملوك » ص ٣٢

Books.Rafed.net

ذكر المسعودى[١] إنه كان يغلب ه على يزيد بن عبد الملك حب جارية يقال لها سلامة القس ، وكانت لسهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى . فاشتراها يزيد بثلاثة آلاف دينار . فأعجب بها وغلبت على أمره .

وفيها يقول عبد الله بن قيس الرقيات :

لقد فتن الدنيا وسلامة القسا فلم يتركا للقس عقلا ولا نفسا

فاحتالت أم سعيد العثمانية ـــ جدته ـــ بشراء جارية يقال لها حبابة ـــ قد كان فى نفس يزيد بن عبد الملك قديماً منها شىء . فغلبت عليه ووهب سلامة لأم سعيد . فعذله مسلمة بن عبد الملك لما عم الناس من الظلم والجور باحتجابه وإقباله على الشرب واللهو . . . فأظهر الاقلاع والندم . فغلظ ذلك على حبابة . فبعثت إلى الأحوص الشاعر ومبعد المغنى : أنظرا ما أنتما صانعان !!

فقال الأحوص : فى أبيات له :

ألا لا تلمـــه اليوم إن يتبلدا فقد غلب المحزون أن يتجلدا

إذا كنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجرا من يابس الصخر جلمدا

فما العيش إلا ما تلذ وتشتهى وإن لام فيه ذو الشنان وفندا

وغناه معبد وأخذته حبابه فلما دخل عليها يزيد قالت ـــ ياأمير المؤمنين ـــ اسمع منى صوتا واحدا . ثم افعل ما بدا لك . وغنته . فلما فرغت منه جعل يردد قولها :

فما العيش إلا ما تلذ وتشتهى وعاد بعد ذلك إلى لهوه[٢]

---

١ ـــ مروج الذهب ومعادن الجوهر /٣/١٣١ ـــ ١٣٤ .

٢ ـــ ومن طريف ما يروى عن يزيد بن عبد الملك أن حبابة غنته يوما :

بين العراق والاهـــاة حـــرارة

مـا نطئن ولا تـــوغ فنـــبرد

Books.Rafed.net

وذكر اسحق بن ابراهيم الموصلى قال حدثنى ابن سلام قال ذكر يزيد قول الشاعر :

صفحنا عن بنى ذهل وقلنا القوم إخوان
عسى الايام أن يرجعن قوما كالذى كانوا
فلما صرح الشر فأمسى وهو عريان
مشينا مشية الليث غدا والليث غضبان
بضرب فيه توهين وتخضيع وأقران
وطعن كفم الزق وهى والزق ملآن
وفى الشر منجاة حين لا ينجيك إحسان

وهو شعر قديم يقال أنه للفند فى حرب البسوس . فقال لحبابة غنى به بحياتى! فقالت يا أمير المؤمنين هذا شعر لا أعرف أحدا يغنى به إلا الأحول المكى . فقال نعم قد كنت سمعت ابن عائشة يعمل فيه ويترك.

قالت إنما آخذه عن فلان بن أبى لهب وكان حسن الأداء . فوجه يزيد إلى صاحب مكة : إذا أتاك كتابى هذا فادفع إلى فلان بن أبى لهب ألف دينار لنفقه طريقه واحمله على ما شاء من دواب البريد . ففعل . فلما قدم عليه قال غن بشعر الفند . فغناه فأجاد وأحسن . وقال أعده فأعاده فأجاد وأحسن وأطرب يزيد . فقال له ممن أخذت هذا الغناء ؟ فقال يا أمير المؤمنين أخذته عن أبى ، وأخذه

= فأهوى يزيد ليطير . فقالت يا أمير المؤمنين لنا بك حاجة . فقال والله لأطيرن ... وقد اورن موقفه هذا بموقف أبيه عندما خاطب زوجته عاتكة « لما أرادت منعه من الخروج إلى قتال مصعب بن الزبير » قائلا قاتل الله كثير عزة كأنه شاهد هذا حين قال :

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه حصان عليها نظام در يزينها
تهمه فلما لم تسر النهى ناقما بكت فبكى ـ مما شجاها ـ قطينها

Books.Rafed.net

أبي عن أبيه ، فقال لو لم ترث إلا هذا الصوت لكان أبو لهب قـــد ورثكم خيراً كثيراً .

فقال يا أمير المؤمنين إن أبا لهب مات كافرا مؤذيا لرسول الله .

فقال قد أعلم ما تقول ، ولكن دخلتني له رقة إذ كان مجيد الغناء . ووصله وكساه ورده إلى بلده مكرما ...

واعتلت حبابة فأقام يزيد أياما لا يظهر للناس . ثم ماتت فأقام أياما لا يدفنها جزعا عليها ... فقيل له إن الناس يتحدثون بجزعك وأن الخلافة تجل عن ذلك . فدفنها وأقام على قبرها فقال :

فإن تسل عنك النفس أو تدع الهوى فباليأس تسلوا النفس لا بالتجلد

ثم أقام بعدها أياما قلائل ومات . .

وحدث أبو عبد الله محمد بن ابراهيم عن أبيه عن اسحق الموصـــلي عن أبي الحويرث الثقفي قال : لمـا ماتت حبابة حزن عليها يزيد بن عبد الملك حزناً شديداً ، وضم إليه جويرية كانت تحدثها فكانت تخدمه . فشملت الجارية يوما :

كفى حزنا للهـائم الصب أن يرى منازل من يهوى معطلة قفرا

فبكى ... ولم تزل جويرية معه يتذكر بها حبابة حتى مات . »

وفي معرض التحدث عن الوليد بن يزيد يقول صاحب الأغاني[1] أنه كان « فاسقا خليعا متهما في دينه مرميا بالزندقة . وشاع ذلك من أمره وظهر حتى أنكره الناس فقتل .

وله أشعار تدل على خبثه وكفره . »

---

١ ـ الأصبهاني « الأغاني » ٦/٩٩ ـ ١٠٦

Books.Rafed.net

وكان الوليد وليا للعهد أثناء خلافة هشام .

وكان مكرما عنده ، حتى طمع هشام فى خلعه وعقد العهد لابنه مسلمة . . . فولاه الحج ليظهر فسقه بالحرمين فيسقط . فحج الوليد وظهر منه فعل كثير مذموم. وتشاغل بالمغنين وبالشراب وأمر مولى له فحج بالناس ...

فدعا هشام الناس إلى خلعه والبيعة لمسلمة ، وكان يكنى أبا شاكر — .

وكتب هشام إلى الوليد : إنك ماتدع شيئاً من المنكر إلا أتيته وارتكبته غير متحاش ولا مستتر . فليت شعرى ما دينك ؟ . . . فكتب إليه الوليد — معرضا بابنه مسلمة —

أيها السائل عن ديننا نحن على دين أبى شاكر
نشربها صرفا وممزوجة بالسخن أحياناً وبالفاتر(١)

ومن طريف ما يرويه(٢) الطبرى عن الوليد أثناء توليته الحج — كما ذكرنا — أنه عندما ولاه هشام الحج فى عام ١١٩هـ حمل « معه كلابا فى صناديق . فسقط منها صندوق — فيما يذكر على بن محمد عمن سميت من شيوخه — عن البعير وفيه كلب . . .

وحمل الوليد معه قبة عملها على قدر الكعبة ليضعها على الكعبة . وحمل معه خمراً . وأراد أن ينصب القبة على الكعبة ويجلس فيها . فخوفه أصحابه وقالوا لا نأمن الناس علينا معك . فلم يحركها . »

---

(١) فغضب هشام على ابنه مسلمة . فأغرى مسلمة شاعرا يمدحه فقال :

أيها السائل عن ديننا نحن على دين أبى شاكر
الواهب البزل بارسانها ليس بزنديق ولا كافر

٢ — تاريخ الأمم والملوك /٧/٢٨٩ .

Books.Rafed.net

ومن أقذر ما يؤثر عن الوليد أنه عندما سمع بنعى هشام ــ على ما يذكر ابن شبة[١] ــ قال « والله لاتلقين هذه النعمة بسكرة قبل الظهر وأنشأ يقول :

طاب يومى ولذ شرب السلافة إذ أتانى نعى من بالرصافة
وأتانا البريد ينعى هشاما وأتانا بخاتم للخلافة
فاصطحبنا من خمر عانة صرفا ولهونا بقينه هزافة

وأقذر من ذلك أنه قال ــ حين سمع صياحا « فسأل عنه فقيل له هذا من دار هشام يبكيه بناته » :

إلى سمعت بليل ــ وراء المصلى ــ برنه
إذ بنات هشام يندبن والدهنه
يندبن قرما جليلا قد كان يعضدهنه
أنا المخنث حقا إن لم أنيكهنه

ومن مجونه أيضاً ــ على شرابه ــ قوله لساقيه :

أسقنى يايزيد بالقرقاره قد طربنا وحنت الزماره
اسقنى اسقنى فان ذنوبى قد أحاطت فما لها كفاره

والخلاصة : فإن الوليد ــ فى معرض الغرام والتبذل ــ كان كما وصفه ابن عبد ربه[٢] عاكفا « على البطالة وحب القيان والملاهى ، والشراب ومعاشقة النساء .

فتعاشق سعدى ابنة سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان فتزوجها .

---

١ ــ الأغانى /٦/١٠٥ ــ ١٠٦ .
٢ ــ العقد الفريد ٤/١٨١ .

Books.Rafed.net

ثم تعاشق أختها سلمى . فطلق أختها سعدى وتزوج سلمى . فرجعت سعدى إلى المدينة فتزوجت بشر بن الوليد بن عبد الملك .

ثم ندم الوليد على فراقها . وكلف بحبها . فدخل عليه أشعب المضحك . فقال له الوليد :

هل لك على أن تبلغ سعدى منى رسالة ولك عشرون ألف درهم ؟ قال هاتها . فدفعها إليه . فقبضها وقال ما رسالتك ؟ قال : إذا قدمت المدينة فأستأذن على سعدى وقل لها يقول لك الوليد :

أسعدى ما إليك من سبيل ولا حتى القيامة من تلاق
بلى ولعل دهرا أن يؤاتى بموت من خليك أو فراق

فأتاها أشعب فقال يا سيدتى : أرسلنى إليك الوليد برسالة . قالت : هاتها فأنشدها البيتين .

فقالت : ما جرأك على مثل هذه الرسالة !! قال : إنها بعشرين ألفا معجلة مقبوضة . قالت : والله لاجلدنك أو لتبلغنه كما بلغتنى !! قال فأجعلى لى جعلا . قالت : بساطى هذا .

قال فقوى عنه . فقامت . فطواه وضمه ، ثم قال هاتى رسالتك فقالت قل له :

أتبكى على سعدى ! وأنت تركتها فقد ذهبت سعدى فما أنت صانع ؟

فلما بلغه الرسالة ــ هدده بالقتل ــ

فقال أشعب : يا سيدى ما كنت لتعذب عينين نظرتا إلى سعدى . فضحك وخلى سبيله . »[1]

---

١ ــ ابن عبد ربه العقد الفريد ٣/١٨٤ .

Books.Rafed.net

أما ـ في معرض الشراب ـ فالوليد كان ـ بالإضافة إلى ذكرناه ـ كما وصفه علي بن عباس[1] حين قال :

« إني عند الوليد بن يزيد في خلافته إذ أتى بابن شراعة من الكوفة . فو الله ما سأله عن نفسه ولا عن مسيره حتى قال له :

يا ابن شراعة أنا والله ما أبعث إليك لأسألك عن كتاب الله وسنة رسوله . قال : لو سألتني عنهما لوجدتني حمـــارا !! قال : إنما أرسلت إليك لأسألك عن القهوة .

قال : دهقانها الخبير ولقمانها الحكيم وطبيبها العليم قال :

خبرني عن الشراب !! قال : يسأل أمير المؤمنين عما بدا له . قال :

ما تقول في الماء ؟ قال لابد لي منه . والحمار شريكي فيه . قال : ما تقول في اللبن ؟ قال ما رأيته قط إلا استحييت من أمي لطول ما أرضعتني به .

قال ما تقول في السويق قال : شراب الحزين والمستعجل والمريض . قال :

فنبيذ التمر ؟ قال سريع الإمتلاء سريع الانفشاش . قال فنبيذ الزبيب ؟ قال : حاموا به على الشراب . قال ما تقول في الخمر ؟ قال أواه تلك صديقة روحي .

قال : وأنت ـــ والله ـــ صديق روحي[2] . »

---

١ ـ ويروى أن الوليد قال ـ في سلمى ـ قبل تزويجه بها ـ :

قـــل الله يجمعـني بسـلمى ... أليس الله يفعل ما يشـاء !!

ويأتي بي ويطرحـني عليهـا ... ويوقظني وقـد قضى القضـاء

ويرسل ديمـة من بعد هذا ... فتغسـلنا وليس بنـا عنـاء

٢ ـ « أمير المؤمنين » يستفسر عن مراتب الشراب وأوصافه ، وليس له حاجة ـ باعترافه ـ أن يستفسر عن الكتاب أو السنة . يفعل ذلك على مرأى ومسمع من العالمين .

Books.Rafed.net

وأما سبب قتله فقد رواه اسحق بن محمد الأزرق حين قال : — على ما يروى ابن عبد ربه[1] دخلت على منصور بن جمهور الأزدى — بعد قتل الوليد ابن يزيد — وعنده جاريتان من جوارى الوليد . فقال لى : إسمع من هاتين الجاريتين ما يقولان . قالتا قد حدثناك !! قال حدثاه كما حدثتمانى .

قالت إحداهما : كنا أعز جواريه عنده . فنكح هذه وجاء المؤذنون يؤذنونه بالصلاة . فأخرجها — وهى سكرى جنبة — متلثمة فصلت بالناس . »

ولاندرى فيما إذا كان من المستطاع أن يبلغ الاستهتار بالدين وبالأخلاق عند « خليفة المسلمين » حدا يتعدى ما وصل إليه عند الوليد !!

ترى لماذا استهتر الأمويون بالإسلام إلى هذا الحد ؟

تارة بالخروج على تعاليمه ، وأخرى بقتل الداعين إلى إتباعه .

وطوراً عن طريق هدم الكعبة واستباحة المدينة الخ !!!

أهو من باب التشفى من قتلاهم فى عهد الرسول ؟

ذلك ما نجنح إلى قبوله والتسليم بوجاهته .

روى أبو خليفة — الفضل بن الحباب الجمحى القاضى — عن محمد بن سلام الجمحى « قال : حدثنى رجل من شيوخ أهل الشام عن أبيه . قال :

كنت سميرا للوليد بن يزيد فرأيت ابن عائشة القرشى عنده وقد قال له :

إنى رأيت صبيحة النحر ... حورا تفين عزيمة الصبر

مثل الكواكب فى مطالعها ... عند العشاء أطفن بالبدر

وخرجت أبغى الأجر محتسباً ... فرجعت موقورا من الوزر

---

١ ـ العقد الفريد ٣/١٦١ .

Books.Rafed.net

فقال الوليد أحسنت والله ... أعد بحق عبد شمس . فأعاد .

فقال : أحسنت والله أعد بحق أمية فأعاد .

فجعل يتخطى من أب إلى أب ويأمره بالإعادة حتى بلغ نفسه .

فقال أعد بحياتى . فأعاد . فقام إلى ابن عائشة فأكب عليه . ولم يبق عضوا من أعضائه إلا قبله . وأهوى إلى أيره .

فجعل ابن عائشة يضم ذكره بين فخذيه . فقال الوليد — والله — لازلت حتى أقبله . فقبل رأسه .

وقال : واطرباه !! واطرباه !!

نزع ثيابه فألقاها على ابن عائشة وبقى مجرداً إلى أن أتوه بثياب غيرها .

ودعا بألف دينار فدفعت إليه . وحمله على بغلة وقال أركبها على بساطى وانصرف فقد تركتنى على أحر من جمر الغضى ...

وقد كان ابن عائشة غنى بهذا الشعر يزيد بن عبد الملك — أباه — فأطربه وقيل : إنه ألحد وكفر فى طربه ...

وذكر محمد بن يزيد المبرد أن الوليد ألحد فى شعر له ذكر فيه النبى وأن الوحى لم يأته من ربه ... ومن ذلك الشعر :

تسلعب بالخلافة هاشمى بلا وحى أتاه ولا كتاب[1] .»

---

١ — المسعودى ، مروج الذهب ٣/١٤٩ . ومما يحكى أن الوليد استفتح فألا فى المصحف فخرج : واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . فألقى المصحف ورماه بالسهام. وأنشد :

تهددنى بجبار عنيد وها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ماجئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقنى الوليد

Books.Rafed.net

٣ – الـــزنى

من الموبقات التى كانت منتشرة بكثرة ، بين العرب فى جاهليتهم . وقد حاربه الإسلام محاربة لا هوادة فيها ولا شفقة .

وقد مر بنا ذكر بعض الآيات التى ورد فيها موقف الإسلام الصارم من هذا التصرف الفاسد . ولسنا فى معرض التدليل على أخطار الزنى ومضاره ، القريبة والبعيدة ، المباشرة وغير المباشرة ، فى الفرد وفى المجتمع الذى ينتمى إليه .

ويكفى للتدليل على ذلك : أن نتذكر أن الإسلام قرن الزنى بقتل النفس التى حرم الله ، فحرمه ومنعه ووضع عقوبة صارمة على من يتعاطاه .

إستمع إلى ما جاء فى سورة الانعام :

« قل تعالوا اتل عليكم ما حرم ربكم ...

ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ...

« ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق . . . وجاء فى سورة الاعراف :

« قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق ... » وفى سورة بنى إسرائيل :

« ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا . »

وقرنه القرآن – فى موضع آخر – مع الشرك « وهو أكبر الموبقات بنظر

Books.Rafed.net

الإسلام ، فقال فى سورة الفرقان : « والذين لا يدعون مع الله إله آخر ولايقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولايزنون .

ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيها مهانا » .

وبقدر ما يتعلق الأمر بشيوع موبقة الزنى عند الأمويين فإن بإمكان الباحث أن يعثر على تأصله — فى هذه الأسرة العربية الكريمة — منذ عهد الجاهلية ، عند رؤوس الأسرة من الرجال والنساء .

فقد مر بنا وصف ما صنعه أمية بن عبد شمس « وجد معاوية بن أبى سفيان » فى الجاهلية عندما زوج إبنه عمراً إحدى نسائه فى حياته فولدت أبا معيط .

وقد ورث أبو سفيان عن جده هذه الخصلة الجاهلية .

وحوادث زناه معروفة لدى الكثيرين ، نذكر منها — على سبيل التمثيل لا الحصر — علاقاته الجنسية بالنابغة والدة عمرو بن العاص ، وبسمية أم زياد .

« فأما النابغة فقد ذكر الزمخشرى فى كتاب « ربيع الأبرار » فقال :

كانت النابغة — أم عمرو — أمة لرجل من عنزة . فسبيت .

فأشتراها عبد الله بن جدعان التيمى بمكة . فكانت بغيا . ثم أعتقها .

فوقع عليها أبو لهب وأمية بن خلف الجمحى وهشام بن المغيرة .

وأبو سفيان والعاص بن وائل السهمى . . . فولدت عمروا » . فأدعاه كل منهم فحكمت أمه فيه فقالت هو من العاص . فقال أبو سفيان :

أما أنى لا أشك أنى وضعته فى رحم أمه . فأبت إلا العاص .

فقيل لها : أبو سفيان أشرف نسباً . فقالت :

Books.Rafed.net

إن العاص كثير النفقة على ...

وفى ذلك يقول حسان بن ثابت لعمرو :

أبوك أبوسفيان لاشك قد بدت ... لنا فيك منه بينات الدلائل

ففاخر به أما فخرت ولا تكن ... تفاخر بالعاص الهجين بن وائل

وإن الى فى ذاك ياعمرو حكمت ... فقالت رجاء عند ذاك لنائل

من العاص عمرو تخبر الناس كلها ... تجمعت الاقوام عند المحافل[1]

وأما علاقات أبى سفيان بسمية فأشهر من أن تذكر .

فقد ذكر أبو مريم السلولى أنه جمع بين أبى سفيان وسمية على زنى .

« وكانت سمية من ذوات الرايات بالطائف تؤدى الضريبة إلى الحرث ابن كلدة .

وكانت تنزل فى الموضع الذى ينزل فيه البغايا بالطائف ـ وخارجا عن الحضر ـ فى محلة يقال لها حارة البغايا[2] . » وإلى هذا المعنى يشير يزيد بن مفرغ الحميرى فى هجائه معاوية[3] :

---

١ ـ ابن أبى الحديد : شرح نهج البلاغة ٢/١٠٠ ـ ١٠١ الطبعة الأولى بمصر .

٢ ـ المسعودى ، « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ، /٢/٣١٠ ـ ٣١٢ .

٣ ـ ابن الأثير « الكامل فى التاريخ » ٣/٢٥٧ . ومن طريف ما يروى عن ابن مفرغ هذا أنه كان مع عباد بن زياد بن سمية بسجستان فانشغل عنه بحرب الترك فاستبطأه ابن مفرغ ، وأصاب الجند الذى مع عباد ضيق فى علوفات دوابهم . فقال ابن مفرغ :

ألا ليت اللحى كانت حشيشاً ... فنعلفها دواب المسلمينا

وكان عباد عظيم اللحية فقيل له ما أراد غيرك . فطلبه فهرب وهجاه :

إذا أودى معاوية بن حرب ... فبشر شعب رحلك بالصداع

وأشهد أن أمك لم تباشر ... أبا سفيان واضعة القناع

ولكن كان أمراً فيه لبس ... على وجل شديد وارتياع

Books.Rafed.net

ألا أبلغ معـــاوية بن حرب مغلغلة من الرجـــل اليمانى
أتغضب أن يقـال أبوك عف وترضى أن يقـال أبوك زان
فأشهد أن رحمـــك من زياد كرحم الفيل من ولد الإتان

أما أخبار الزنى عند الأمويين بعد ذلك وبخاصة عند يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد فمشهورة .

وقد ذكرنا طرفا منها عند البحث فى الخمر .

ذلك ما يتعلق بالزنى عند رجال الامويين .

أما ما يتصل بالزنى عند نسائهم فيكفى أن نذكر حمامة أم أبى سفيان ـــ جدة معاوية ـــ التى كانت بغيا فى الجاهلية وكانت صاحبة راية ، وهند ـــ أم معاوية .

والزرقاء : جدة مروان بن الحكم لأبيه . فقد كانت هند ـــ على ما يذكر الرواة ـــ تذكر فى مكة بعهر وفجور .

ذكر الزمخشرى[1] أن معاوية كان مشكوكا فى أبيه . فكان يعزى إلى أربعة :

إلى مسافر بن أبى عمرو .

وإلى عمارة بن الوليد بن المغيرة .

وإلى العباس بن عبد المطلب .

وإلى الصباح مغن كان لعمارة بن الوليد بن المغيرة .

وكان الصباح عسيفاً ـــ أجيراً ـــ لأبى سفيان ، شابا وسيما . فدعته هند إلى نفسها فغشيها .

وكان أبو سفيان دميماً قصيراً .

---

١ ـ ابن أبى الحديد ، « شرح نهج البلاغة » ١/١١٠ ـ ١١٣ الطبعة الأولى .

Books.Rafed.net

وقيل : إن عتبة بن أبي سفيان من الصباح أيضاً .

وقيل أنها كرهت أن تدعه فى منزلها فخرجت إلى أجياد فوضعته هناك .

وفى هذا المعنى يقول حسان أيام المهاجاة بين المسلمين والمشركين فى حياة الرسول قبل عام الفتح :

لمن الصبي بجانب البطحاء ... فى التراب ملقى غير ذى نهـــد
نجلت به بيضـــاء آنســـة ... عن عبد شمس صلبـــة الخد . »

ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا الصدد أن ابن حجر العسقلانى[1] قد ذكر « إن معاوية كان طويلا أبيض . »

وقد ذكرنا أن أبا سفيان على ما يصفه المؤرخون كان دميماً قصيراً .

وأن الصباح ــ مغنى عمارة بن الوليد بن المغيرة كان وسيما .

فهل توجد علاقات ــ فسلجية ــ موروثة بين الصباح ومعاوية ؟

وإذا كان الأمر كذلك فإن العلم الحديث يلقى بعض الضوء على ما ذهب إليه المؤرخون فى هذا الباب .

وهناك روايات أخرى تتصل بمهر السيدة هند نذكر منها ما رواه أبو عبيدة معمر بن المثنى حين قال :

إن السيدة « هند كانت تحت الفاكه بن المغيرة المخزومى ، وكان له بيت ضيافة يغشاه الناس ... فخلا ذلك البيت يوما فاضطجع فيه الفاكه وهند . ثم قام الفاكه وترك هند فى البيت ــ لأمر عرض له . ثم عاد إلى البيت فإذا رجل خرج ...

فأقبل الفاكه إلى هند فركلها برجله وقال : من الذى كان عندك ؟ فقالت :

---

٢ ــ الإصابة فى تمييز الصحابة ٤/٤١٢ .

Books.Rafed.net

لم يكن عندى أحد ، وإنما كنت نائمة . فقال : ألحق بأهلك .

فقامت من فورها إلى أهلها وتكلم فى ذلك الناس[١] .

وأما الزرقاء ـــ جدة مروان بن الحكم لأبيه ـــ فهى بنت وهب .

وكانت من ذوات الرايات التى يستدل بها على ثبوت البغاء[٢] .

وكان يقال لأولاذعبد الملك بن مروان : « أولاد الزرقاء » فى معرض الذم .

٤ ـــ الغدر

وهو : صفة ممزوجة دينياً وإجتماعياً . ويتضمن الغدر ، فى كثير من الأحيان جبن الشخص الذى يستعين به للإيقاع بخصومة ومناوئيه .

وللغدر آثار خلقية سيئة ، وله إضرار مادية ومعنوية ، قريبة وبعيدة ، فردية وإجتماعية من الناحيتين المباشرة وغير المباشرة .

وقدحرم الإسلام الغدر ونهى عنه . استمع إلى الآيتين التاليتين : سورة البقرة : « والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون . » وجاء فى سورة الرعد :

والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار . »

لقد برزت ظاهرة الغدر فى الأسرة الأموية بين النساء والرجال على السواء ،

---

١ ـــ ابن أبى الحديد « شرح نهج البلاغة » ١/٣١٣ الطبعة الأولى .

٢ ـــ ابن الاثير ، « الكامل فى التاريخ » ٢/٣ . تلك جدة عبد الملك ومواقف جده وأبيه من النبى معروفة . أما جده لأمه فهو ـــ أبو عائشة ـــ معاوية بن المغيرة بن أبى العاص الذى جدع أنف حمزة فى أحد ومثل به . راجع المقريزى ، النزاع والتخاصم ص ٢٠ .

Books.Rafed.net

الفصل الخامس ـــــــ

لقد مر بنا القول بأن صفة الغدر كانت متفشية بين الأمويين من النساء والرجال على السواء وبقدر ما يتعلق الأمر بالغدر عند النساء الأمويات يمكننا أن نقول :

لقد غدرت أم خالد ــ ابنة أبي هشام ــ أرملة يزيد بن معاوية بزوجها مروان بن الحكم فخنقته بالوسادة حتى قتلته . وتفصيل ذلك على ما رواه الطبرى(١) :

إن معاوية بن يزيد ، عندما حضرته الوفاة أبى أن يستخلف أحداً . وكان حسان بن مالك بن بحدل ــ خال يزيد بن معاوية ــ يريد أن يجعل الأمر ، بعد معاوية بن يزيد ، لأخيه : خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان .

وكان خالد صغيراً . فبايع لمروان بن الحكم على أن يجعل الأمر من بعده لخالد . فلما بايع لمروان وبايعه أهل الشام قيل لمروان تزوج أم خالد حتى تصغر شأنه فلا يطلب الخلافة . فتزوجها . فدخل خالد يوماً على مروان وعنده جماعة كثيرة .

فقال مروان لخالد تعال يا ابن الرطبة الإست ــ يقصر به ليسقطه من أعين أهل الشام ـ فرجع خالد إلى أمه فأخبرها . فقالت له : أنا أكفيكه . . .

ثم أن مروان نام عندها فغطته بالوسادة حتى قتلته . ، ويحدثنا الطبرى كذلك(٢) عن منشأ العداوة بين عبد الملك بن مروان وعمرو بن سعيد الأشدق ــ الذى سنذكره عند التحدث عن الغدر عند الأمويين من الرجال ، فيغزو. إلى حقد قديم منطو على الغدر الذى اتصفت به أم مروان بن الحكم .

---

١ ــ تاريخ الأمم والملوك ٧/٨٣ ــ ٨٤ .

٢ ــ المصدر نفسه : ٧/١٨٠ .

Books.Rafed.net

وتفصيل ذلك : أن عمرو ابن سعيد وأخاه ، وعبد الملك ومعاوية ابنى مروان يأتون — وهم غلمان — إلى « أم مروان بن الحكم الكنانية . فكان ينطلق مع عبد الملك ومعاوية غلام لهم أسود . وكانت أم مروان — إذا أتوها — هيأت لهم طعاماً ثم تأتيهم به فتضع بين يدى كل رجل صحيفة على حدة .

وكانت لا تزال تورش بين معاوية ومروان ومحمد بن سعيد ، وبين عبد الملك وعمرو بن سعيد فيقتتلون ويتصارمون الحبل لا يكلم بعضهم بعضا .

وكانت تقول : إن لم يكن عند هذين عقل فعند هذين .

فكان ذلك دأبها كلما أتوها حتى أثبتت الشحناء فى صدورهم » .

أما الغدر عند رجال بنى أمية فهو أبين منه عند نسائهم وذلك لطبيعة الأوضاع العامة التى تميز بين الجنسين . ويتجلى الغدر — بين الأمويين — بأوضح أشكاله عند معاوية بن أبى سفيان وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك .

ويلوح لى أن الغدر كان صفة ملازمة للحكام الأمويين فإذا صادف أن اختفى الغدر فى عهد أحدهم فإن مرد ذلك يعود إما إلى عدم تسجيل المؤرخين لذلك « الأسباب شتى مقصودة أو غير مقصودة » أو إلى أن ذلك الحاكم لم ير حاجة إلى الاستعانة به لتوافر أساليب ملتوية أخرى — من نوعه من حيث الأساس — وبقدر ما يتعلق الأمر بالحكام الأمويين : الذين ذكرنا أسماءهم فإن قصص الغدر عند معاوية مشهورة فى كتب التاريخ .

فقد غدر بالأشتر كما هو معروف ودس له من يسمه وهو فى القلزم فى طريقه إلى مصر والياً من قبل على بن أبى طالب .

Books.Rafed.net

فلما بلغ معاوية نجاح غدره إلتفت إلى زميله عمرو بن العاص وقال مبتسما : إن الله جنوداً من عسل .

وغدره بالحسن بن على وبعبد الرحمن بن خالد بن الوليد أشهر من أن يذكر .

وأما غدر عبد الملك بن مروان فيتجلى بأبشع أشكاله فى موقفه من عمرو ابن سعيد الأشدق[1] . وقد حصل ذلك فى عام (٧٠) عندما كان عبد الملك منشغلا فى المسير من دمشق نحو العراق للقاء مصعب بن الزبير .

وكان مروان بن الحكم قد وعد عمرو بن سعيد بأن يتولى الأمر من بعده فكسب مساعدته وتأييده فى ظروف وملابسات تاريخية معروفة نجمت عن تخلى معاوية بن يزيد عن الحكم واضطراب الأمر من بعده غير أن مروان بن الحكم — على عادته الأموية — نكث عهده للأشدق وأوصى بالخلافة لإبنه عبد الملك .

فذكر الأشدق عبد الملك بذلك وطلب إليه أن يعهد له بالأمر من بعده . ولكن عبد الملك أرادها لأولاده من بعده . فبيت للأشدق شراً وطلبه إليه .

فأجاب الأشدق على رغم تحذير خواصه . فقال لهم :

« والله لو كنت نائماً ما تخوفت أن ينبهنى ابن الزرقاء . . .

ومضى فى مئة رجل من مواليه . وبعث عبد الملك إلى بنى مروان فاجتمعوا عنده . فلما بلغ عبد الملك أنه بالباب أمر أن يحبس من كان معه . وأذن له فدخل فرمى عمرو ببصره نحو عبد الملك فإذا حوله بنوا مروان .

فلما رأى جمعهم أحس بالشر . فرحب به عبد الملك وقال : هيها يا أبا أمية

---

١ — راجع الطبرى : « تاريخ الأمم والملوك » ٧/١٧٦ — ١٧٩ .

Books.Rafed.net

يرحمك الله . فأجلسه معه على السرير . . وجعل يحدثه طويلا ثم قال : « يا غلام خذ السيف عنه » . فقال عمرو : أنا لله — يا أمير المؤمنين — فقال عبد الملك أو تطمع أن تجلس معى متقلدا سيفك !! فأخذ السيف عنه . ثم تحدثا . فأخرج عبد الملك من تحت فراشه جامعة فطرحها أمامه . ثم قال يا غلام قم فاجمعه فيها . فقام الغلام فجمعه فيها .

فقال عمرو اذكرك الله — يا أمـــير المؤمنين — أن تخرجنى فيها على رؤوس للناس .

فقال عبد الملك أمكراً يا أبا أمية عند الموت !! ثم اجتذبه إجتذابة أصاب فمه فكسر ثنيته . فقال عمرو أغدرا يا ابن الزرقاء !! — .. وأذن مؤذن العصر .

فخرج عبدالملك ليصلى بالناس ، وأمر عبد العزيز بن مروان أن يقتل عمروا .. وصلى عبد الملك ... ورجع فوجد عمرا حيا . فقال — لعبد العزيز — ما منعك من أن تقتله ؟ قال : إنه ناشدنى الله والرحم فرققت به .

فقال له عبد الملك أخزى الله أمك البواله على عقبها ... ثم إن عبد الملك قال يا غلام أئتنى بالحربة . فأتاه بها . فهزها . ثم طعنه بهـــا ... وجلس على صدره فذبحه ...

إنتفض عبد الملك رعدة ... فحمل عبد الملك عن صدره ووضع على سريره ...

وجاء عبد الرحمن بن أم حكيم الثقفى فرفع إليه الرأس فألقاه فى الناس .

وقام عبد العزيز بن مروان فأخذ الأموال فى البدور فجعل يلقيها إلى الناس . فلما نظر الناس إلى الأموال ورأوا الرأس إنتهبوا الأموال وتفرقوا . »

تلك هى مأساة الأشدق . ولابد أن القارىء قد لاحظ معنا جملة أمور قام بها عبد الملك بن مروان « خليفة » للمسلمين وابن « خليفتهم » — لايجيزها الدين

Books.Rafed.net

ولا العرف ، ولا الذوق الإنسانى الرفيع .

ترى لماذا قتل عبد الملك ابن عمه بذلك الشكل الغادر ؟ لكى يحافظ على الخلافة الإسلامية التى انتهك حرمتها أبوه من قبله ؟

لماذا صلى وهو متلبس بجريمة التهيؤ للقتل ؟

أليست الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ؟

هل تنسجم الصلاة مع قتل النفس التى حرم الله ؟

ثم لماذا نثرت الدراهم على الناس مع رأس القتيل ؟ للإمعـــان فى إفساد أخلاق الناس ؟

هل يجيز الإسلام أن يعمل « الخليفة » على إفساد أخلاق المسلمين ؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة تسوقنا إلى القول بأننا أمام تصرفات خلقية جاهلية وثنية حاربها الإسلام وتعهدها الأمويون بالرعاية والتنشيط .

ولعل أطرف قصص الغدر وما يرافقه من التواء فى الخلق عند الامويين قصة الوليد بن عبد الملك عندما أراد خلع أخيه سليمان من ولاية العهد وتحويلها لولده عبد العزيز « بعد أن أغراه على ذلك ـ ووافقه عليه ـ جملة أشخاص من المتنفذين وفى مقدمتهم الشاعر جرير وقتيبة بن مسلم الباهلى وإلى خراسان والحجاج بن يوسف الثقفى والى العراق » .

ومن أطرف ما نظمه جرير فى هذا الصدد ـ قوله :

إذا قيل أى الناس خير خليفة ... أشارت إلى عبد العزيز الأصابع

رأوه أحق الناس كلهم بها ... وما ظلموا ـ فبايعوه وسارعوا[1]

---

١ ـ الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ٨/٩٧ .

Books.Rafed.net

وقال : أيضاً فى قصيدة أخرى يحث الوليد على جعل ولاية العهد لابنه عبد العزيز :

فزحلقها بأزملها إليه أمير المؤمنين إذا تشاء
فان الناس قدموا إليـــه أكفهم وقد برح الخفاء
ولو قد بايعوه ولى عهد لقام الوزن واعتدل البناء

غير أن إخفاق الوليد فى مسعاه قد جعل الأمر ينتقل بعد وفاته إلى أخيه سليمان وبذلك أصبح موقف الذين ألبوا الوليد على خلع سليمان حرجا .

ولعل محاولة « الخليفة » الجديد الإنتقام لنفسه من هؤلاء وسعى قتيبة بن مسلم الباهى إلى تدارك الموقف تبين لنا الغدر الأموى بإحدى صوره البشعة .

وإلى القارىء ملخصها : عندما علم قتيبة بتسلم سليمان مقاليد الحكم الأموى كتب إليه كتاباً « يهنئه ويعزيه على الوليد ويعلمه بلاءه وطاعته لعبد الملك والوليد وأنه على مثل ما كان لهما من الطاعة والنصيحة إن لم يعزله عن خراسان .

وكتب إليه كتاباً آخر يعلمه فيه فتوحه ونكايته وعظم قدره عند ملوك العجم..

وكتب إليه كتاباً ثالثاً فيه خلعه . وبعث بالكتب الثلاثة مع رجل من باهلة .

وقال له : إدفع إليه هذا الكتاب . فإن كان يزيد بن المهلب حاضراً فقرأه سليمان ثم ألقاه إليه فأدفع إليه هذا الكتاب فإن قرأه وألقاه إلى يزيد فأدفع إليه هذا الكتاب .

فإن قرأ الأول ولم يدفعه إلى يزيد فأحتبس الكتابين الآخرين ...

فلما قدم رسول قتيبة فدخل على سليمان وعنده يزيد بن المهلب . فدفع إليه الكتاب فقرأه ثم ألقاه إلى يزيد . فدفع إليه كتاباً آخر . فقرأه ثم رمى به إلى

Books.Rafed.net

يزيد . فأعطاه الكتاب الثالث فقرأه ثم دعا بطين فختمه . ثم أمر به فحبس ..

ثم أمر برسول قتيبة أن ينزل بقرية في دار الضيافة . فلما أمسى دعا به سليمان . فأعطاه صرة فيها دنانير وقال : هذه جائزتك وهذا عهد صاحبك على خراسان فسر وهذا رسولي معك بعهده . فخرج الباهلي . فبعث معه سليمان رجلا من عبد القيس ثم أحد بني ليث يقال له صعصعة أو مصعب . فلما كانوا بحلوان تلقاهم الناس بخلع قتيبة وقتله[1] ».

٥ - الظـــلم

وقد مر بنا ذكره ضمنا في النقاط السابقة . فالغدر والزنى وقتل النفس كلها أمور تقع من الظلم في الصميم . والظلم — بمختلف صنوفه — من الموبقات التي حاربها الإسلام » . جاء في سورة الزمر :

ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض ومثله معه — لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة . وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » .

وقد سأل عبيد الله بن زياد حاد بعقيل بن يسار المزني في مرضه الذي [illegible] الله لو علمت أن لي حياة ما حدثتك.

إني سمعت رسول الله (ص) [illegible] وهو غاش

---

١ ـ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ٨/١٠٤

٢ ـ صحيح مسلم ١/٦٧ .

٣ ـ تاريخ الأمم والملوك ٨/١٢٧ .

Books.Rafed.net

ولعل الحادثة التالية تكشف جانباً من جوانب الظلم عند الأمويين :

ذكر الطبرى : عن أبى عبيدة ، عن رؤبة بن الحجاج قال :

حج سليمان بن عبد الملك وحج الشعراء معه وحججت معهم . فلما كان بالمدينة راجعاً تلقوه بنحو أربعمائة أسير من الروم . فقعد سليمان ...

فقدم بطريقهم — فضرب عنقه — . وجعل سليمان يدفع البقية إلى الوجوه وإلى الناس يقتلونهم حتى دفع إلى جرير منهم فدست إليه بنو عبس سيفاً فى قراب أبيض . فضربه فأبان رأسه .

ودفع إلى الفرزدق أحد الأسرى فلم يجد سيفاً . فدسوا له سيفاً ددناً متيناً لا يقطع . فضرب به الأسير ضربات فلم يصنع شيئاً . فضحك سليمان والقوم . وشمت الفرزدق بنو عبس — أخـــوال سليمان . فألقى السيف وأنشأ يقول ويعتذر إلى سليمان :

إن يك سيف خان أو قدر أتى ... بتأخير نفس حتفها غير شاهد
فسيف بنى عبس وقد ضربوا به ... نبا بيدى ورقاء عن رأس خالد
كذاك سيوف الهند تنبو ظباتها ... وتقطع أحياناً مناط القلائد(١)

وإذا أمعنا النظر فى قضية سليمان بن عبد الملك « خليفة » المسلمين مع أولئك

---

١ — ورقاء بن زهير — من جذيمة العبسى — ضرب خالد بن جعفر بن كلاب ، وخالد مكب على أبيه زهير قد ضربه بالسيف وصرعه . فأقبل ورقاء بن زهير فضرب خالداً فلم يصنع شيئاً : فقال ورقاء :

رأيت زهيراً تحت كلكل خالد ... فأقبلت أسعى كالمجـول أبادر
فشلت يمينى يوم أضرب خالدا ... ويحصنه منى الحـــديد المظاهر

راجع الطبرى : « تاريخ الأمم والملوك » ٨/١٢٧ .

Books.Rafed.net

انزوم المساكين — الذين ساقهم سوء الطالع إلى الوقوع أسرى بين يديه ويعبث — ويمرح — بأرواح أولئك البشر .

وإذا كان الذوق الإنسانى — والدين بالطبع — لايستسيغان العبث — بهذا الشكل — بحياة الحيوان ، فكيف بحياة « الخليفة » أن يفعل ذلك بالبشر !! ولكنها الأخلاق الأموية على كل حال .

ويظهر ظلم الأمويين — بأبشع أشكاله — فى تصرفات ولاتهم القساة وفى مقدمتهم الحجاج بن يوسف الثقفى .

وإلى القارىء هذا الجانب المخيف من تلك القسوة .

كتب عبد الملك بن مروان[1] للحجاج أن يعرض أسرى دير الجماجم على السيف وقال له :

فمن أقر منهم بالكفر بخروجه علينا فخل سبيله .

ومن زعم أنه مؤمن فاضرب عنقه . ففعل . فلما عرضهم أتى بشيخ وشاب .

فقال للشاب : أمؤمن أنت أم كافر ؟ قال بل كافر .

فقال الحجاج لكن الشيخ لا يرضى بالكفر . فقال الشيخ أهن نفسى تخادعنى يا حجاج !! والله لو كان شىء أعظم من الكفر لارتضيت به .

فضحك الحجاج وخلى سبيلهما . ثم قدم إليه رجل فقال له على دين من أنت ؟ قال على دين ابراهيم حنيفا وماكان من المشركين . فقال أضربوا عنقه .

ثم قـــدم آخر فقال له : على دين من أنت ؟ قال على دين أبيك الشيخ يوسف . . . فقال : خل سبيله يا غلام .

---

١ — ابن عبد ربه « العقد الفريد » ٣/٢٥٦ — ٢٥٧ .

Books.Rafed.net

فلما خلى عنه انصرف إليه فقال له يا حجاج سألت صاحبى على دين من أنت فقال على دين ابراهيم حنيفا وما كان المشركين . فأمرت به فقتل .

وسألتنى على دين من أنت فقلت : على دين أبيك الشيخ يوسف فأمرت بتخلية سبيلى ! ! والله لو لم يكن لأبيك من السيئات إلا أنه ولد مثلك لكفاه . فأمر به فقتـــل ... ثم أتى بعامر الشعبي ومطرف بن عبد الله بن الشخير وسعيد بن جبير . . .

فلما قدم له الشعبي قال : أكافر أنت أم مسلم ؟ قال :

أصلح الله الأمير بنا بنـا المنزل وأجدب بنـا الجناب واستحلسنا الخوف واكتحلنا السهر وخبطتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء .

قال الحجاج صدق والله . خليا عنه .

ثم قدم إليه مطرف بن عبد الله فقال له أكافر أنت أم مؤمن ؟ قال :

أصلح الله الأمير إن من شهر العصا ونكث البيعة ، وفارق الجماعة ، وأخاف المسلمين لجدير بالكفر فقال صدق . خليا عنه .

ثم أتى بسعيد بن جبير . فقال له . أنت سعيد بن جبير ؟ قال نعم : قال لا بل شقى بن كسير . قال : أمى أعلم بأسمى منك . فقال : شقيت وشقيت أمك . قال : الشقاء لأهل النار .

قال أكافر أنت أم مؤمن ؟ قال ما كفرت بالله منذ آمنت به . قال : أضربوا عنقه . .

خبرونا على أى شيء يدل سلوك الحجاج وخليفته ؟ !!

هل الخروج على أئمة الكفر — لإرجاعهم إلى حضيرة الدين — كفر بالله ؟

Books.Rafed.net

يعاقب عليه بالقتل ؟ هل فعل الرسول — بأسرى قريش من المشركين — .

ما فعله الأمويون بهؤلاء المسلمين ؟

الواقع : إن تلك أمثلة — كسابقاتها — ، يسند بعضها بعضا ، تدل على جاهلية القوم وتمردهم على الدين . . ويلوح لى : إن أسرى دير الجماجم كان يتنازعهم خوف ذو جانبين :

خوف من الله وخوف من « الوهية » الأمويين ، والحجاج على حساب الله . وتنعكس الآية فى الجانب الثانى . نقول :

الوهية الحجاج والأمويين ونحن غير متجنين عليهم .

فقد مر بنا ما قاله عبد الملك للحجاج بشأن الأسرى : فمن أقر منهم بالكفر بخروجه علينا فخل سبيله . ومن زعم أنه مؤمن فأضرب عنقه . »

وقد استلزم موقفهم من الله أن يطوحوا بحياتهم ، كما استلزم موقفهم من الطاغوت أن يطوحوا بدينهم وخلقهم . فأختار بعضهم الموقف الأول فعرضوا على السيف .

وجنح آخرون نحو الموقف الثانى فأرتاح لهم الحجاج وعفا عنهم .

كل ذلك والحجاج أمير المسلمين يحكم بأسم « أمير المؤمنين » نيابة عن رسول الله ! ! .

٦ — شهادة الزور

وهى : موبقة لا تقل شناعة عما سبقها . وقد استبشعها الإسلام ومنعها وعاقب عليها . ولشهادة الزور نتائج وخيمة ، مادية ومعنوية ، قريبة وبعيدة ، مباشرة وغير مباشرة . وتتعلق شهادة الزور — أشد التعلق — بالموبقات التى ذكرناها

Books.Rafed.net

فتكون سبباً لبعضها ونتيجة لبعض آخر . وفى معرض التحدث عن شهادة الزور قال مالك بن أنس[١] قيل لرسول الله ما الكبائر ؟ فقال : « الشرك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس وشهادة الزور . » أى أن شهادة الزور — بنظر النبى — كالشرك بالله ، وهو أعظم منكر فى الإسلام وكقتل النفس التى حرم الله .

ولم يترد الأمويون من الإستعانة بهذا السلاح — الخطر — للتنكيل بخصومهم لا لذنب إقترفوه بل لأنهم يطالبون الأمويين ، الذين يحكمون بأسم الدين ، ألا يخرجوا عليه .

ويرتكب الأمويون — عند إستعانتهم بشهادة الزور — موبقتين فى آن واحد : تلفيق الشهادة ، والعقاب على جرم ملفق .

وفى تاريخ الأمويين من ذلك الشىء الكثير . ولعل أشهر شهادات الزور فى التاريخ الأموى تلك الشهادة التى لفقوها ضد حجر بن عدى وأصحابه .

وإلى القارىء نصها[٢] : هذا ما شهد عليه أبو بردة بن أبى موسى الأشعرى لله رب العالمين . شهد أن حجر بن عدى خلع الطاعة وفارق الجماعة . وجمع إليه الجموع يدعوهم إلى نكث البيعة وخلع أمير المؤمنين — معاوية بن أبى سفيان — وكفر بالله عز وجل كفرة صلعاء . .

فقال زياد بن سمية : على مثل هذه الشهادة فأشهدوا . . . فشهد اسحق بن طلحة ابن عبيد الله وموسى بن طلحة واسماعيل بن طلحة والمنذر بن الزبير . . .

والسرى بن وقاص الحارثى — كتبت شهادته وهو غائب فى عمله — . .

---

١ — صحيح مسلم بن الحجاج: ١/٤٩ .

٢ — الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ٦/١٤٩ — ١٥٥ .

Books.Rafed.net

والهيثم بن الأسود النخعى — وكان يعتذر إليهم — . . . وكتب فى الشهود شريح بن الحارث القاضى وشريح بن هانىء الحارثى .

فأما شريح القاضى فقال : سألنى عن حجر فأخبرته أنه كان صواما قواما .

وأما شريح بن هانىء الحارثى فكان يقول : ما شهدت . ولقد بلغنى أن كتبت شهادتى فأكذبته ولمته . »

فهل يجيز الخلق الكريم شهادة الزور ؟

وهل يستسيغها الإسلام ؟ يهون الأمر — على فظاعته — لو كان فاعله من عامة المسلمين . فكيف به وهو أمير من أمرائهم !!

وفى هذه الشهادة تزوير مضاعف :

فقد لفقت صيغتها بمجموعها كما لفقت شهادة من لم يكن حاضراً أثناء التلفيق .

وقد لفق تلك الشهادة حاكم يزعم أنه يحكم باسم «خليفة المسلمين» و«أمير المؤمنين» الذى ينوب فى حكمه عن رسول الله .

أما الشهود ففى مقدمتهم — كما يلاحظ القارىء — : أبناء رجال يعتبرهم كثير من المسلمين من خيار صحابة الرسول . وقد قدم بعضهم شهادته الكاذبة — وأبوه ما زال حياً — ولم يمض على وفاة الرسول نصف قرن . فأبو بردة بن أبى موسى الأشعرى بطل التحكيم الذى «خلع» معاوية يعتبر معاوية — الذى خلعه أبوه — أميراً للمؤمنين .

واسحق وموسى ، واسماعيل أبناء طلحة والمنذر بن الزبير يشهدون على حجر أنه خلع الطاعة وفارق الجماعة وجمع إليه الجموع ويدعوهم إلى نكث البيعة وخلع «أمير المؤمنين» معاوية بن أبى سفيان .

Books.Rafed.net

وقد نسى السادة : اسحق وأخواه ـــ موقف أبيهم طلحة من إمام زمانه ونكثه البيعة وخروجه إلى البصرة مع جمل السيدة عائشة أم المؤمنين .

كما نسى المنذر موقف أبيه الزبير .

وهذا من مفارقات التاريخ الإسلامى المملوء بالمفارقات ...

٧ ـــ نقض العهـــد

وهو موبقة من أبشع الموبقات التى حاربها الإسلام لما يترتب عليها من فقدان الثقة بين الناس ومن نتائج مادية ومعنوية على جانب كبير من الوخامة والضرر .

وتتجسم بشاعته إذا صدر من صاحب النفوذ ـــ فكيف به إذا كان « أميرا » للمؤمنين !! ولهذه الموبقة علاقة وثقى بالموبقات التى ذكرناها .

جاء فى سورة الفرقان : « وأوفوا العهد إن العهد كان مسؤولا . »

وذكر البخارى : بأسانيده المختلفة[1] عن حذيفة بن اليمان أنه « قال : ما منعنى أن أشهد بدرا ، إلا أنى خرجت أنا وأبى حسيل . فأخذنا كفار قريش . فقالوا : إنكم تريدون محمدا فقلنا ما نريده . نريد المدينة . فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه . فأتينا رسول الله فأخبرناه الخبر . فقال : إنصرفا . نفى لهم بعهدهم ونستعين الله عز وجل . »

وقد ضرب الرسول للمسلمين أسمى مثل فى المحافظة على العهـــد فى القضية المذكورة . فقد أمر هذين الرجلين ـــ اللذين ساقهما تفادى ما لا تحمد عقباه أن يعطيا ميثاقا للكفار بعدم الإلتحاق بالنبى ـــ بالمحافظة على ذلك الميثاق ـــ للكفار الذين لا مواثيق عندهم ـــ .

---

١ ـ صحيح البخارى ٢/٨٩ .

Books.Rafed.net

وفى وقت كان النبى أحوج ما يكون لنصرتها للمحافظة على بيضة الدين .

غير أن « خلفاء » الأمويين قد ساروا ـ كما جرت عادتهم ـ سيرا يناقض سير النبى تمام المناقضة .

ويلوح للباحث أنهم ـ قد ورثوا ـ هذه الموبقة ـ من جاهليتهم كما ورثوا موبقاتهم الاخرى .

ذكر ابن هشام[1] موقف أبى سفيان « عندما أسر المسلمون فى بدر إبنه عمرا » من المسلمين الذين تعاهد معهم بعدم التعرض لهم والاعتداء عليهم . إذ بينما كان عمرو محبوسا فى المدينة خرج سعد بن النعمان بن أكال « أخو بنى عمرو بن عوف» معتمرا . وكان شيخاً مسلماً .

فعدا عليه أبو سفيان فحبسه بابنه عمرو . وأنشد مفتخراً .

أرهط بن أكال أجيبوا دعاءه ... تعاقدتم لا تسلموا السيد الكهلا

فان بنى عمرو لئـــام أذلة ... لئن لم يفكوا عن أسيرهم الكبلا

أما الأمثلة الأخرى على نكث الأمويين عهودهم وهم حكام المسلمين فكثيرة . وقد مر قسم كبير منها فى الفقرات السابقة .

ويلوح للباحث بأن الوفاء بالعهد ركن من أهم الأركان الخلقية التى بنى عليها الإسلام . فقد نص عليه القرآن ـ كما رأينا ـ .

والتزم به رسول الله فى أقواله وأفعاله على السواء .

وفى تاريخ النبى أمثلة كثيرة تؤيد ما نقول . وقد مر بنا ذكر بعضها .

أما الأمثلة الأخرى فتشير إلى وفاء رسول الله بعهده للمسلمين والمشركين على

---

١ ـ سيرة النبى محمد ٢/٢٩٤ .

Books.Rafed.net

السواء . ولا نظن أن موقفه فى الحديبية — مع سهيل بن عمرو زعيم المشركين — غريب على كثير من القراء .

فقد اشترط سهيل — النبى كما هو معروف — « من جملة ما اشترط ، أن يرد الرسول من يلتحق به من المشركين إلى أهله . ولا عكس .

وقد وافق الرسول على ذلك . !! فأقبل أبو جندل — ابن سهيل بن عمرو — يحمل فى القيود . وكان أسلم فأشفق أبوه أن يلحق بمحمد فقيده . فأقبل أبو جندل حتى ألقى نفسه بين رجال المؤمنين وقال :

أنشدكم الله والإســـلام أن لاتردونى إلى الكفار . فحماه ناس من أصحاب رسول الله فقال سهيل : للنبى أذكرك عهدك . فأمر رسول الله بابن سهيل أن يدفع إليه[1] . » ولم يغب وفاء الرسول بالعهد — وفق مستلزمات الإسلام — حتى عن ذهن خصومه .

فهذا أبو سفيان — أشد خصوم النبى والإسلام — لم يستطع نكران ذلك عند محاورته مع هرقل حول النبى — خصمه اللدود — . قال الواقدى [2] : « وكان أبو سفيان عند هرقل فى تجارة . فقال هرقل : يا أبا سفيان لقد كان يسرنى أن ألقى رجلا من أهل بلدك يخبرنى عن هذا الرجل الذى خرج منكم .

فقال أبو سفيان : على الخبير سقطت . سلنى عما شئت من أمره .

فقال هرقل : حدثنى عنه أنبى هو أم كذاب ؟ فقال أبو سفيان : هو كذاب .
قال هرقل : ما الذى يأمركم به ؟ وما الذى ينهاكم عنه ؟

---

١ — الواقدى « مغازى رسول الله » ص ٣١٠ .

٢ — المصدر نفسه ص ٢٢٣ .

Books.Rafed.net

قال أبو سفيان : يأمرنا أن ننحنى طرفى النهار كما تنحنى النساء ، وأن نعطيه خراجا من أموالنا كل عام . وينهانا عن الميتة والدم ...

قال هرقل : أخبرنى هل يغدر إذا واثق ؟ قال أبو سفيان لا . ماغدر قط . »

٨ — ولاة السوء

استعان الأمويون بطائفة ضخمة من الولاة القساة الفجرة فى تصريف شئون المسلمين(١) . فكان هؤلاء لايقلون — عن أسيادهم الأمويين — جفاء لروح الدين وخروجا سافراً على مقوماته وتعاليمه .

وقد اشترك هؤلاء — مع الأمويين — فى جميع الموبقات التى ذكرناها بشكل مباشر أحيانا وبشكل غير مباشر أحيانا أخرى .

وأشهر هؤلاء الولاة — وهم كثيرون — عمرو بن العاص وزياد بن سمية والحجاج بن يوسف الثقفى .

فعمرو وهو ابن العاص بن وائل السهمى « أحد المستهزئين برسول الله والمكاشفين له بالعداوة والبغضاء والأذى » .

وكان العاص يدعى الأبتر وفيه نزل قـــوله : « إن شانئك هو الأبتر . » قال ابن اسحق:(٢) .

« وكان خباب بن الأرت — صاحب رسول الله — قينا ، أى حدادا ، بمكة

---

١ — أما القواد الذين اعتمد عليهم الأمويون فقد كانوا أشد من الولاة وأقسى . وقد مر بنا طرف من أخبارهم وبخاصة بسر بن أرطاة .

٢ — ابن هشام « سيرة النبى محمد » ١/٣٨٠ .

Books.Rafed.net

يعمل السيوف وكان قد باع من العاص بن وائل سيوفا عملها له . حتى إذا كان عليه مال فجاء يتقاضاه فقال له : يا خباب أليس يزعم محمد صاحبكم ــ هذا الذى أنت على دينه ــ إن فى الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم؟

قال خباب بلى . قال فانظرنى إلى يوم القيامة يا خباب حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هنالك حقك . فو الله : لا تكون أنت ــ وصاحبك ــ يا خباب آثر عند الله منى .

فأنزل الله فيه : أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا أطلع الغيب ... إلى قوله ونرثه ما يقول ويأتينا فردا . »

أما أم عمرو بن العاص فهى النابغة التى مر بنا ذكر جانب من فجورها وعهرها عندما تحدثنا عن أبى سفيان .

وأما زوج عمرو فقد اتهمت هى الأخرى بالاجتماع على زنى مع عمارة ابن الوليد بن المغيرة ــ أخى خالد بن الوليد .

فقد ذكر ذلك ابن اسحق فى كتابه : عن عمارة بن الوليد وعمرو بن العاص ــ عند خروجها إلى الحبشة للايقاع بالمسلمين هناك ــ .

وكان عمارة جميلا وسيما تهواه النساء . وهو صاحب محادثة لهن . فركبا البحر . ومع عمرو بن العاص امرأته . حتى إذا صاروا فى البحر اصابا من خمر معها . فلما انتشى عمارة قال لامرأة عمرو بن العاص : قبلينى .

فقال لها عمرو قبلى بن عمك . فهويها عمارة وجعل يراودها عن نفسها . »(١)

وأما عمرو نفسه فقد كان أشد خصوم الرسول فى بدر واحد .

---

١ ــ ابن أبى الحديد ، « شرح نهج البلاغة » ٢/١٠٧ الطبعة الأولى بمصر .

Books.Rafed.net

وكان عمرو أحد الذين تعقبوا زينب بنت النبي حين خرجت مهاجرة — من مكة إلى المدينة — وقرعوا هودجها بكعوب رماحهم حتى أجهض جنينا ميتا من بعلها أبي العاص بن الربيع قبل إسلامه . وقد روى الواقدى وغيره من الرواة .

إن عمروا هجا رسول الله واتهم بالتعاون مع آخرين أمثال : عقبة بن أبي معيط كانوا يؤذون رسول الله بأيديهم ويلقون القاذورات فى مصلاه والعوسج على رأسه .

وعمرو هو القائل يوم أحد عندما حارب النبي فى صفوف المشركين :

لما رأيت الحرب ينزو شرها بالرصف نزوا
أيقنت أن الموت حق والحياة تكون لغوا
حملت أثوابى عـــلى عتـد يبذ الخيل رهـوا

فلما يئس عمرو من الانتصار على النبي فى الحرب لجأ إلى الغدر والدس والتوارى عن الأنظار .

قال عمرو نفسه على ما يذكر ابن هشام(١) : « لما انصرفنا من الأحزاب عن الخندق جمعت رجالا من قريش كانوا يرون رأيى ويسمعون منى فقلت لهم : إنى أرى أمر محمد يعلو الأمور علوا منكرا ... فأرى أن نلحق بالنجاشى فنكون عنده . فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشى . فإما أن نكون تحت يديه أحب الينا من أن نكون تحت يدى محمد فإن ظهر قومنا فنحن من عرفوا . »

وكان عمرو من أكبر المؤلبين على عثمان بن عفان والمخذلين عن نصرته لأنه عزله عن ولاية مصر .

---

١ — سيرة النبى محمد ٣/٣١٧

Books.Rafed.net

« فكان يؤلب الناس عليه ويحرضهم ما وسعه ذلك سرا . على أنه لم يتردد أن قال لعثمان جهرة فى المسجد : إنك ركبت بالناس أمورا وركبناها معك فتب إلى الله نتب .

وتاقى عثمان ذلك أسوأ لقاء . فلما اشتدت وعرف أنها منتهيه إلى غايتها أثر أن يعتزلها فى طورها ذاك . فخرج إلى أرض كان يملكها بفلسطين فأقام فيها يتنسم الأخبار .

وكان عمرو وأبناه على ما هم عليه بفلسطين حتى جاءهم النبأ بقتل عثمان . فقال عمرو لابنه عبد الله أنا أبوك ما حككت قرحة إلا أدميتها — يريد أنه مهد للفتنه والثورة بعثمان فأحكم التمهيد وانتهى الأمر إلى غايته[1] . » ويحدثنا عمرو نفسه عن بعض ما فعله من التأليب على عثمان وهو فى طريقه إلى فلسطين فيقول على ما يذكر البلاذرى[2] :

« والله أنى كنت لالقى الراعى فأحرضه على عثمان . » أما موقفه الدنىء فى التحكيم فلا يحتاج إلى شرح .

فقد أغفل أبا موسى الأشعرى — إبتداء — وألقى فى روعه أن موضوع التحكيم ينحصر فى تعيين خليفة للمسلمين — كأن خلع على من الخلافة قد بات أمراً مفروغا .

ولما اطمأن عمرو إلى ثبوت ذلك فى ذهن أبى موسى جعل موضوع البحث ينحصر فى الاتفاق على مرشح جديد .

---

١ — الدكتور طه حسين : « الفتنة الكبرى » : على وبنوه ص ٦٧ — ٦٨ .

٢ — أنساب الأشرا : ٥/٧٤ .

Books.Rafed.net

ولما ظهر أنهما لم يتفقا على شخص معين طلب عمرو من أبى موسى أن يوجد حلا للخروج من ذلك المأزق الحرج الذى يتوقف عليه مصير المسلمين آنذاك .

فتقدم أبو موسى باقتراح جديد ظنه كسباله واندحارا لابن العاص . فقدخيل اليه أنه سينتصر إذا ما وافق عمرو على « خلع » معاوية بعد أن بات على خلع «على» أمرا متفقا عليه . فوافق عمرو — فى الظاهر — على الفكرة وأغرى صاحبه أن يعلنها للناس . ثم عاد فغدر به . فبرز عمرو — فى ذلك كله — بأبشع ما يبرز فيه الرجل من الخداع والدس والتدنى عن مستويات الأخلاق الرفيعة .

ومن طريف ما يروى عن عمرو قوله لعائشة . « كنت أود أنك قتلت يوم الجمل .

قالت : ولم لا أبا لك !! قال كنت تموتين بأجلك وتدخلين الجنة ونجعلك أكبر التضنيع على على بن أبى طالب . »

و « روى ابن مزاحم قال : حدثنى يحيى بن يعلى قال حدثنى صباح المزنى عن الحرث بن حصن عن زيد بن أبى رجاء عن أسماء بن حكيم الفزارى قال : كنا بصفين مع على تحت راية عمار بن ياسر ارتفاع الضحى وقد استظللنا برداء أحمر إذ أقبل رجل يستقرى الصف حتى انتهى الينا وقال :

أيكم عمار بن ياسر ؟ فقال عمار : أنا عمار . قال أبو اليقظان ؟ قال نعم —

قال إن لى اليك حاجة . قال : أفأنطق بها سرا أو علانية ؟ قال اختر لنفسك أيهما شئت . قال . لا بل علانية . قال : فأنطق بها . قال إنى خرجت من أهلى مستبصرا حتى ليلتى هذه . فإنى رأيت فى منامى مناديا تقدم فأذن وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ونادى بالصلاة ونادى مناديهم مثل ذلك . ثم اجتمعت الصلاة فصلينا صلاة واحدة وتلونا كتابا واحداً ودعونا دعوة واحدة .

Books.Rafed.net

فأدركنى الشك فى ليلتى هذه فبت بليلة لا يعلمها إلا الله حتى أصبحت فأتيت أمير المؤمنين فذكرت ذلك له . فقال : هل لقيت عمار بن ياسر ؟ قلت لا. . .

قال : فألقه فأنظر ماذا يقول لك عمار فأتبعه . فجئتك لذلك .

قال عمار : تعرف صاحب الراية السوداء المقابلة لى ؟ فإنهـــا راية عمرو بن العاص قاتلها مع رسول الله ثلاث مرات وهذه الرابعة . فما هى بخيرهن ولا أبرهن بل شرهن وأفجرهن .

أشهدت بدراً وأحداً ويوم حنين أو شهدها أب لك فيخبرك عنها ؟ قال لا . قال: فإن مراكزنا اليوم على مراكز رايات رسول الله يوم بدر ويوم أحد ويوم حنين ، وإن رايات هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب .

فهل ترى هذا المعسكر ومن فيه ؟

والله لوددت أن جميع من فيه ممن مع معاوية يريد قتالنا مفارقا للذى نحن عليه كانوا خلقاً واحداً فقطعته وذبحته . والله لدماؤهم جميعاً أحل من دم عصفور .

أفترانى بينت لك ؟! قال قد بينت لى . قال: فاخترأنى ذلك أحببت . فانصرف الرجل فدعاه عمار ثم قال : أما إنهم سيضربونكم بأسيافهم حتى يرتاب المبطلون منكم فيقولوا لو لم يكونوا على حق ما أظهروا علينا . والله ما هم من الحق على ما يقذى عين دباب . لو ضربونا بأسيافهم حتى يبلغونا سعفات هجر لعلمنا أنا على حق وأنهم على باطل[1] . »

---

١ ـ ابن أبى الحديد : « شرح نهج البلاغة » ١/٥٠٦ . لقد ضرب عمار ـ فى ذلك أروع مثال فى التضحية فى سبيل الإسلام وجهاد الخارجين عليه . وقد مر بنا ذكر صور أخرى من ذلك فى مقدمة الكتاب .

Books.Rafed.net

وأما زياد بن سمية والحجاج بن يوسف فلم يدركا النبي ليساهما فى إيذائه . ولكنهما نالا من تعاليمه ودينه بقدر ما نال ابن العاص من شخصه الكريم .

فقد عاث هذان الأميران الفاجران فى الأرض فسادا وعبثا بأرواح المسلمين وممتلكاتهم وعقائدهم .

فقتلا من قتلا وحبسا ونفيا وعذبا من المسلمين عدداً كبيراً .

وقد مر بنا ذكر جانب من تصرفات ابن سمية وطرفا من سلوك أمه التى كانت من ذوات الرايات .

ذكر الطبرى : أن زياد بن أبيه حينما كان واليا على البصرة « كان يؤخر صلاة العشاء ... ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج . ولا يرى إنساناً إلا قتله . قال : فلقى ليلة إعرابياً فأتى به زياداً فقال : هل سمعت النداء ؟ قال لا والله. قدمت بحلوبة لى وغشينى الليل فاضطررتها إلى موضع . فأقمت لأصبح ولا علم لى بما كان من الأمر . قال : اظنك ــ والله ــ صادقاً ولكن فى قتلك صلاح هذه الأمة . ثم أمر به فضربت عنقه .

وكان زياد أول من شد أمر السلطان وأكد الملك لمعاونه والزم الناس الطاعته وتقدم فى العقوبة وجرد السيف وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة[1] .

والغريب فى الأمر إن أبسط العقوبات الشائعة فى العهد الأموى هى القتل . وكان ينبغى أن تكون تلك العقوبة آخر العقوبات حسب تعاليم الدين والعرف السياسى الشائع . وأغرب من ذلك أن القتل كان يجرى على التهمة ودون محاكمة أو سماع لوجهة نظر المتهم .

---

١ ــ « تاريخ الأمم والملوك ٧/٢١٧

Books.Rafed.net

ونود فى ختام هذا الجانب من جوانب الدراسة أن نعرض على القارىء طرفا من تصرفات الحجاج الذى ملأ اسمه أسماع الناس مقروناً بالظلم والبغى والخروج على تعاليم الإسلام .

هذا إلى أن الحجاج قد ساهم فى جميع الموبقات الأموية التى ذكرناها، وأسرف فى قتل النفس التى حرم الله .

« وكان الحجاج يخبر عن نفسه أن أكثر لذاته سفك الدماء وإرتكاب أمور لا يقدم عليها غيره ولا سبق إليها سواه[1] .

وقد سأل الحجاج يوما بعض كتابه عن رأى الناس فيه فاستعفاه الكاتب فلم يعفه . « فقال : يقولون إنك علوم ، غشوم ، ، قتال ، عسوف ، كذاب[2] .

وقد سأله يوما عبد الملك بن مروان أن يصف نفسه على حقيقتها .
« فقال أعفنى ياأمير المؤمنين : قال لتفعلن .
قال : أنا لجوج ، حقود ، حسود .
قال عبد الملك ما فى الشيطان شر مما ذكرت[3] . »

---

١ ـ المسعودى : « مروج الذهب » ٣/٦٧ . ومن الطريف أن نذكر هنا أن ظلم الرعية من أسهل الأمور التى يستطيع أن يقوم بها الحاكم إذا توافرت لديه عناصر القوة فى جهازه الحكومى . وأن غالبية الناس ـ فى العادة ـ يتحملون الذل ويألفون الانقياد تفادياً التعذيب أو القتل . وإذا رأينا بعض الحكام لايميلون إلى الشدة ـ رغم توافر الإمكانيات المادية لاستعمالها ـ فان مرد ذلك على ما نرى . ليس هو الخوف من الرعية أو من انتفاضها بقدر ما هو الخوف من وخز الضمير وعقاب النفس .

٢ ـ الجهشيارى : « الكتاب والوزراء » ص ٤٢ .

٣ ـ ابن قتيبة : « عيون الأخبار » مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة . الطبعة الأولى .

Books.Rafed.net

لقد مر بنا القول أن اسم الحجاج مقرون فى العادة ـ عند كثير من الناس ـ بالشدة والقسوة المتناهيتين . حتى أصبح اسمه يضرب فيه المثل فى أخذ الرعية بسياسة الشدة بإبشع صورها .

وقد يخيل لبعض الناس إن هذه الشدة تدل على الرجولة والشجاعة . غير أنى أرى أنها تدل على الجبن والتخاذل . لأن الشجاعة إنما تظهر عند الرجل فى مواقفه مع من هم فى منزلته ، من الحياء والسطوة والنفوذ أو القوة الجسمية ، أو مع من هم فوقه فى ذلك .

أما أن يستعمل المرء ضروب القسوة والشدة مع من هم دونه ، فى السطوة والنفوذ ، أو مع العزل من الناس فأمر إن دل على شىء فانما يدل على الخسة والجبن وضعة النفس ، خاصة إذا ما كانت مواقف ذلك الشخص ـ مع من هم أعلى منه ـ تنطوى على الجبن والتهافت .

وإلى القارىء موقف الحجاج مع عبد الملك بن مروان فى قضيتين هامتين :

عندما أسرف الحجاج فى قتل أسارى دير الجماجم وعلم بذلك عبد الملك بن مروان كتب إليه يزجره وذيل كتابه بالأبيات التهديدية التالية :

إذا أنت لم تطلب أموراً كرهتها ... وتطلب رضائى بالذى أنت طالبه
وتخشى الذى يخشاه مثلى هاربا ... إلى الله منه ضيع الدير حالبه
فإن ترمنى غفلة قرشية ... فيا ربما قد غص بالماء شاربه
وإن ترمنى وثبة أموية ... فهذا وهذا كل ذا أنا صاحبه
فلا لا تلمنى والحوادث جمة ... فإنك مجزى بما أنت كاسبه
ولا تعد ما يأتيك منى وإن تعد ... يقوم بها يوما عليك نوادبه[1]

---

١ ـ المسعودى : « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ٣/٧٤ ـ ٧٦ .

Books.Rafed.net

والحجاج إنما أسرف فى القتل خدمة للعرش الأموى لا شك فى ذلك عنده أو عند عبد الملك أو عند الآخرين .

فلما قرأ الحجاج كتاب عبد الملك أجابه متخاذلا متراجعاً ذليلا متهافتاً ، طفحت وضاعة نفسه على لسانه ، وذيل كتابه بالأبيات التالية :

إذا أنا لم أتبـــع رضاك واتق ... أذاك فيومى لا تزول، كواكبه
ومالا مرىء ـ بعدالخليفة ـ جنة ... تقيه من الأمر الذى هو كاسبه
أسالم من سالمت من ذى قرابة ... ومن لم تسالمه فأنى محـــاربه
إذا قارف الحجاج منك خطيئة ... فقامت عليه فى الصياح نوادبه
إذا أنا لم أدن الشفيق لنصحه ... واقص الذى تسرى إلى عقاربه
فمن ذا الذى يرجو نوالى ويتقى ... مصاولتى والدهر جم نوائبه
فقف بى على حدالرضالاأجوزه ... مدىالدهر ـ حتى يرجعالدرحالبه

هناك ــ على ما يبدو ــ حجاجان . حجاج القسوة والشدة مع العزل والضعفاء والأبرياء . وحجاج التخاذل والجبن مع القساة الفجرة من الحكام والأمراء .

حجاج « يرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها : يمصب الناس عصب السلمة حتى يذلوا ويضربهم ضرب غرائب الإبل حتى يذروا العصيان وينقادوا » ،

وحجاج آخر جبان متخاذل إذا لم يبع رضا الخليفة ويتق أذاه فليله لا تزول كواكبه . حجاج يقوله :

وما لامرىء ـ بعدالخليفة ـ جنة ... تقيه من الأمر الذى هو كاسبه

حجاج يخاطب الخليفة متضرعاً :

فقف بى على حد الرضالاأجوزه ... ـمدىالدهر ـحتى يرجع الدرحالبه

أما المثال الثانى ـ الذى يتخاذل الحجاج فيه أمام سيده عبد الملك « بعد أن

Books.Rafed.net

تعالى وتجبر على فرد أعزل من رعاياه ، فقـــد ذكره ابن الأثير[٢] حين قال : لحين دخل على الحجاج أنس بن مالك قال له الحجاج : لا مرحبا ولا أهلا بك يا ابن الخبيثة ، شيخ ضلالة ، جوال فى الفتن ... أما والله لاجردنك جرد القضيب، ولا عصبنك عصب السلمة ، ولأقلعنك قلعة الصمغة .

فقال أنس : من يعنى الأمير ؟ قال إياك أعنى أصم الله صداك . فرجع أنس فكتب إلى عبد الملك كتابا يشكو فيه الحجاج ...

فكتب عبد الملك إلى الحجاج : إنك عبد طمت بك الأمور فعلوت حتى عدوت طورك ، وجاوزت قدرك . يا ابن المستضرمة بعجم الزبيب لأغمزنك غمزت كبعض غمزات الليوث والثعالب ، ولأخبطنك خبطة تود لها أنك رجعت فى مخرجك من بطن أمك .

أما تذكر حال آبائك فى الطائف حيث كانوا ينقلون الحجارة على ظهورهم ويحتفرون الآبار بأيديهم فى أوديتهم ومياههم ؟ !

أنسيت حال آبائك فى اللؤم والدناءة ، فى المروءة والخلق ؟ وقد بلغ أمير المؤمنين الذى كان منك إلى أنس بن مالك ...

فعليك لعنة الله من عبد أخفش العينين ، أصك الرجلين ، ممسوح الجاعرتين... أكرم أنساً وأهل بيته ، وأعرف حقه ولا تقصر فى شىء من حوائجه .

وبعث بالكتاب مع اسماعيل بن عبد الله «مولى بنى مخزوم» فأتى اسماعيل بكتاب أمير المؤمنين فقرأه . وأتى الحجاج بالكتاب إليه فجعل يقرؤه ووجهه يتغير وجبينه يرشح عرقا ويقول : يغفر الله لأمير المؤمنين . ثم اجتمع بأنس . فرحب الحجاج به واعتذر إليه . »

---

١ ـ الكامل فى التاريخ ٤/٣٩ .

Books.Rafed.net

ونود أن نختتم هذا البحث بعرض آراء طائفة من أجلة المسلمين فى « تزكية » الحجاج . قال ابن عبد ربه : (١) « حدثنا هشام بن يحيى عن أبيه قال : حدثنا عمر بن عبد العزيز قال : لو جاءت كل أمة بمناقبها وجئنا بالحجاج لفضلناهم . »

وذكر ميمون بن مهران عن الأجلح « قال : قلت للشعبي يزعم الناس أن الحجاج مؤمن!! قال مؤمن !! بالجبت والطاغوت كافر بالله .

وقال على بن عبد العزيز عن اسحق بن يحيى عن الأعمش قال : اختلفوا فى فقالوا بمن ترضون ؟ قالوا بمجاهد. فأتوه فقالوا إنا اختلفنا فى الحجاج. فقال أجئتم تسألونى عن الشيخ الكافر !!!

وقال محمد بن كثير عن الأوزاعى قال : سمعت القاسم بن محمد يقول : كان الحجاج بن يوسف ينقض عرى الإسلام عروةعروة . » انتهى

وقد تم طبع هذا الكتاب بطبعته الثانية بالقاهرة بمطبعة دار المعلم للطباعة فى شهر رمضان المبارك عام ١٣٩٨ هجرية والحمد لله والصلاة على محمد وعترته الهادين المهديين إلى يوم الدين

Books.Rafed.net

مطبعة دار المعلم للطباعة بالقاهرة

Books.Rafed.net